حقـــــائق إســــــلامية
فــى
مواجهة حملات التشكيك

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

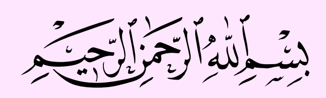


شارع الفتح - أبراج عثمان - أمام المريلاند - روكسى - القاهرة
تليفون وفاكس: ٩-٤٥٠١٢٢٨ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨
Email: shoroukintl@hotmail.com
shoroukintl@yahoo.com

حقائق إسلامية
فى
مواجهة حملات التشكيك

أ.د. محمود حمدى زقزوق





مقدمة

قصة الصراع بين الحق والباطل والخير والشر قصة قديمة بدأت فصولها مع بداية الإنسان على الأرض. وسوف تتواصل فصولها طالما كان هناك إنسان فى هذا الوجود.

والإسلام منذ ظهوره يخوض معارك متواصلة ضد الباطل الذى يبذل كل ما يستطيع من أسلحة لطمس معالم الحق الذى جاء به الإسلام.

ومن المفارقات الغريبة أن الإسلام ـ وهو الدين الذى ختم الله به الرسالات، وكان آخر حلقة فى سلسلة اتصال السماء بالأرض ـ قد تعرض منذ اللحظات الأولى لظهوره ـ ولا يزال حتى اليوم ـ للهجوم وإثارة الشبهات حوله والتشكيك فى عقائده وتعاليمه.

ووجه الغرابة فى ذلك يتمثل فى أن الإسلام ـ فى الوقت الذى جاء فيه يعلن للناس الكلمة الأخيرة لدين الله على الأرض ـ لم ينكر أيّا من أنبياء الله السابقين ولا ما أنزل عليهم من كتب سماوية، ولم يجبر أحداً من أتباع الديانات السماوية السابقة على اعتناق الإسلام. ولم يقتصر الأمر على عدم الإنكار، وإنما جعل الإسلامُ الإيمانَ بأنبياء الله جميعًا وما أنزل عليهم

من كتب عنصراً أساسيّا من عقيدة كل مسلم بحيث لا تصح هذه العقيدة بدونه، ومن شأن هذا الموقف المتسامح للإسلام إزاء الديانات السابقة أن يقابل بتسامح مماثل وأن يقلل من عدد المناهضين للإسلام.

ولكن الذى حدث كان على العكس من ذلك تمامًا. فقد وجدنا الإسلام - على مدى تاريخه - يتعرض لحملات ضارية من كل اتجاه. وليس هناك فى عالم اليوم دين من الأديان يتعرض لمثل ما يتعرض له الإسلام فى الإعلام الدولى من ظلم فادح وافتراءات كاذبة.

وهذا يبين لنا أن هناك جهلاً فاضحًا بالإسلام وسوء فهم لتعاليمه، سواء كان ذلك بوعى أم بغير وعى، وأن هناك خلطًا واضحًا بين الإسلام كدين وبعض التصرفات الحمقاء التى تصدر من بعض أبناء المسلمين باسم الدين وهو منها براء.

ومواجهة ذلك تكون ببذل جهود علمية مضاعفة من أجل توضيح الصورة الحقيقية للإسلام، ونشر ذلك على أوسع نطاق.

والواقع يبين لنا أن الشبهات التى تثار ضد الإسلام منذ ظهر وحتى اليوم شبهات مكررة، ولا تختلف مع بعضها إلا فى الصياغة أو محاولة إعطائها صبغة علمية. وقد نهض مفكرو الإسلام - فى فترات مختلفة - بالقيام بواجبهم فى الرد على هذه الشبهات كلٌّ بطريقته الخاصة وبأسلوبه الذى يعتقد أنه السبيل الأقوم للرد.

ونحن لا نقلل من جهود من سبقونا فى هذا المجال، ولا ندّعى أننا أتينا بما لم يأت به الأوائل فى هذا الصدد. ولكننا أردنا بهذا الكتاب أن نعطى

ردّا مركزًا على كل شبهة من هذه الشبهات المثارة، والتى تتردد فى عصرنا بشكل أو بآخر، وبخاصة فى عصر ثورة المعلومات والاتصالات والاستخدام المتزايد لشبكة الاتصالات الدولية «الإنترنت».

وقد صدر من هذا الكتاب فى السنوات الأخيرة عدة طبعات عن طريق المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

وتعميمًا للفائدة تم ترجمة الكتاب إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والقازاقية والتايلاندية، كما تم بثه على الموقع الخاص بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية على شبكة «الإنترنت».

ونأمل أن يسهم هذا الكتاب- على صغر حجمه- فى توضيح الصورة الحقيقية للإسلام وإزالة بعض ما علق بالأذهان من سوء فهم لتعاليمه وعقائده.

أ.د. محمود حمدى زقزوق

الفصل الأول

القــرآن الكريــم

القرآن الكريم

أولاً: هل القرآن وحى إلهى أم تأليف بشرى؟

١ـ القرآن الكريم هو كتاب الإسلام الأول الذى تقوم على أساسه عقائد الدين الإسلامى وشريعته، وتنبثق منه أخلاق الإسلام وآدابه. فإذا ثبت أنه وحى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإن الإيمان به يصبح أمرًا لا مفر منه.

ومن أجل ذلك اتجهت جهود المناهضين للإسلام قديمًا وحديثًا إلى محاولة زعزعة الاعتقاد فى صحة القرآن وفى مصدره. وقد بذل الوثنيون المكيون جهدهم فى مقاومة الحقيقة المتمثلة فى أن القرآن وحى من عند الله. فزعموا أنه ﴿ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ [الفرقان: ٤]، وأنه ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان: ٥]، وأن محمدًا: ﴿ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] أو أن القرآن قول ساحر أو كاهن. وكانوا يهدفون من وراء ذلك كله إلى إبطال القول بأنه وحى السماء إلى محمد ﷺ لهداية البشر.

وقد حذا عدد من المستشرقين المتحاملين على الإسلام فى موقفهم من القرآن حذو مشركى مكة، وبذلوا محاولات مستميتة لبيان أن القرآن ليس

وحيًا من عند الله، وإنما هو من تأليف محمد ﷺ ورددوا أحيانًا الاعتراضات التى قال بها الوثنيون قديمًا على الرغم من دحض القرآن لها.

ومن الثابت تاريخيًا أن محمدًا كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ولذلك عين عددًا من أصحابه لكتابة ما ينزل عليه من وحى قرآنى. ولو كان يستطيع القراءة والكتابة لما كان فى حاجة إلى الاستعانة بأحد لكتابة آيات القرآن. فكيف يستطيع أمى أن يطلع على كتب الديانات الأخرى؟ وكيف ومتى حدث ذلك؟ إن هذه مجرد دعاوى لا يقوم عليها دليل، ولا سند لها من الواقع.

٢ـ لقد ظل النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعو إلى الإسلام فى مكة حوالى ثلاثة عشر عامًا. ولم يثبت تاريخيًا أنه كانت له صلات باليهود على الإطلاق. أما صلاته بالمسيحية فإن القائلين بذلك يضخمون فى هذا الصدد قصة لقائه براهب مسيحى يدعى «بحيرى» فى طريق القوافل إلى الشام عندما كان محمد فى صحبة عمه أبى طالب فى تجارته إلى الشام، وكان عمره حينذاك تسع سنوات أو اثنتى عشرة سنة. فكيف لصبى صغير أن يستوعب ديانة بكاملها فى لقاء عابر لم يستمر إلا لدقائق؟ وما الذى يدفع بحيرى لاختيار هذا الصبى الصغير بالذات من بين كل القافلة لتعليمه الدين المسيحى؟ ولماذا انتظر محمد ثلاثين عامًا بعد هذا اللقاء لإعلان دعوته؟

إن هذه قصة غير معقولة ولا مقبولة. وهذا ما دعا أحد المستشرقين لرفضها تمامًا بوصفها قصة مختلقة من أساسها. فقد قال المستشرق هوارت

(Huart) «لا تسمح النصوص العربية التى عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى فى الدور المسند إلى هذا الراهب السورى إلا مجرد قصة من نسج الخيال»[١] .

٣ـ القرآن الكريم يتفق مع كل الديانات السماوية السابقة فى الإيمان بإله واحد خالق للكون، وأن مردَّ الجميع إليه . ويرجع هذا الاتفاق إلى أن مصدر هذه الديانات جميعًا واحد وهو الله، فلا يجوز أن يكون بينها تناقض فى أصول الاعتقاد . ولكن القرآن الكريم قد عارض كثيراً من المعتقدات الأخرى السائدة لدى أصحاب الديانتين اليهودية والمسيحية . فكيف يقال إذن إن محمداً استعان بمصادر مسيحية ويهودية؟ ألم يكن من الأولى- إذا صح ذلك- ألا يكون هناك أى اختلاف، أو على الأقل يكون اختلافًا هامشيّا وليس متصلاً بمعتقدات أساسية؟ .

٤ـ لقد اشتمل القرآن على حقائق علمية لم يعرفها العلم إلا فى العصر الحديث[٢]، وعلى سبيل المثال ما أشار إليه القرآن من مراحل تطور الجنين فى بطن أمه، وحقائق أخرى حول الأرض والشمس والكواكب والرياح والأمطار . . إلخ . فمن أين أتى محمد بذلك؟ لا يستطيع أحد أن يقول إنه قد استعان فى ذلك بمصادر مسيحية أو يهودية ؛ لأنها لا تشتمل على شىء

(١) راجع : مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٣٤ هامش ١ ـ دار القلم بالكويت ١٩٧١م (وهذا الكتاب أحد رسالتين علميتين قدمهما المؤلف بالفرنسية إلى جامعة باريس عام ١٩٤٧م) .

(٢) راجع : موريس بوكاى : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ـ دار المعارف ١٩٧٨م .

من ذلك. فهل يعقل أنه أتى بها من عند نفسه، وهو الأمى الذى لم يحصل على أى قدر من التعليم؟

إن كل الشواهد تدل على أنه وحى إلهى وأن مصدر القرآن لا يمكن أن يكون مصدرًا بشريّا.

ثانيًا: هل كان القرآن تلفيقًا من الديانات السابقة؟

١ـ لو كان القرآن بالفعل ملفقًا من الكتب الدينية السابقة فهل كان معاصرو محمد ومعارضوه من كل الاتجاهات سيسكتون عن ذلك؟ لقد كانوا يتصيدون له التهم. فكيف غاب عنهم ذلك ولم يكشفوا عنه؟ إن كل ما استطاع المعارضون أن يدعوه لم يخرج عن إطار التعميمات التى لا تستند إلى أى أساس علمى. وقد أشار القرآن الكريم نفسه إلى هذه الدعاوى الباطلة- كما سبق أن أوردنا ذلك فى الرد على الشبهة السابقة.

٢ـ لقد اشتمل القرآن الكريم على الكثير من التشريعات والتعاليم التى لا وجود لها فى كتب الديانات السابقة، فضلاً عن إحاطته بتفصيلات لأخبار الأمم السابقة، واشتماله على أمور غيبية تحققت بالفعل كما أخبر بذلك القرآن، مثل مصير الصراع بين الروم والفرس. وهذه كلها أمور لم يكن يعرفها محمد ولا قومه ولا أصحاب الديانات السابقة.

٣ـ لقد دعا القرآن الكريم إلى العلم واحترام العقل واستخدامه. وعلى أساس من تعاليمه الجديدة استطاع المسلمون فى فترة زمنية قصيرة نسبيّا أن يبنوا حضارة حلت محل الحضارات السابقة عليها واستمرت قرونًا

عديدة. فإذا كان القرآن قد أخذ من الديانات السابقة، فلماذا لم تشتمل هذه الديانات على هذه التعاليم وتقوم بنفس الدور الذى قام به الإسلام؟

٤ ـ القرآن الكريم كله كتاب متسق فى نظمه وأسلوبه وتعاليمه، فلو كان ملفقًا من كتب سابقة لكان متناقضًا ومفككًا وغير محكم، نظرًا لاختلاف المصادر. وفضلاً عن ذلك فالقرآن الكريم يخاطب العقل دائمًا، ويخلو من الأساطير والخرافات، ويعتمد الدليل والبرهان، ويطالب خصومه بذلك قائلاً: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، [الأنبياء: ٢٤]، [النمل: ٦٤]، [القصص: ٧٥].

وهذا النهج يعد نهجًا جديدًا غير مسبوق، وبالتالى فإنه لا يمكن أن يكون مستعارًا من ديانات سابقة.

٥ ـ أما بالنسبة للثقافة الجاهلية ـ التى قيل أيضًا إن القرآن قد اعتمد عليها ـ فإن الثابت أن الإسلام قد رفض عقائد الجاهلية الباطلة وعاداتها السيئة وتقاليدها البالية، وأحل محلها عقائد صحيحة وعادات حسنة وتقاليد مقبولة، فما الثقافة الجاهلية إذن التى أخذها الإسلام من الجاهلية؟

ثالثًا: هل صحيح أن القران الكريم لم يأت بجديد؟

بالإضافة إلى ما سبق فى الرد على الدعوى السابقة يمكن الإشارة إلى ما يأتى:

١ ـ لقد اشتمل القرآن على أخبار لم يكن يعرفها أهل الكتاب. فقد ذكر القرآن مثلاً بالتفصيل قصة زكريا وولادة مريم وكفالته لها. وأورد الكثير عن

مريم وخصص لها سورة بكاملها فى القرآن الكريم مما ليس له نظير فى العهد الجديد. فمن أين استقى محمد هذه المعلومات إذن؟.

٢ ـ جاء فى سفر الخروج أن ابنة فرعون هى التى تبنت موسى فى حين قرر القرآن أن امرأة فرعون هى التى تبنته. وفى هذا السفر أيضًا نسبة صنع العجل الذى عبده بنو إسرائيل إلى هارون فى حين نسب القرآن ذلك إلى السامرى وذكر إنكار هارون ذلك عليهم.

٣ ـ إذا كان القرآن قد اقتبس من الإنجيل فلماذا لم يأخذ بنظرية التثليث المسيحية التى تعد الأساس الراسخ فى العقيدة المسيحية؟ ولماذا لم يأخذ بعقيدة الصلب والفداء والخطيئة الموروثة وألوهية المسيح؟(١).

٤ ـ لقد جعل القرآن الكريم من أنبياء الله نماذج أخلاقية عليا، بينما ينسب العهد القديم إلى بعضهم ارتكاب الفواحش، وهذا لا يتفق مع مكانة الأنبياء فى التصور الإسلامى. (راجع مثلاً قصة سيدنا لوط مع ابنتيه فى العهد القديم).

٥ ـ العبادات فى الإسلام والتى جاء بها القرآن من صلاة وصيام وزكاة وحج، وتفاصيل هذه الشعائر وطريقة أدائها من الأمور التى لا نظير لها فى الديانات السابقة. فالصلوات الخمس التى تؤدى بطريقة مخصوصة وفى أوقات معينة وبصيغ محددة، والصيام فى شهر رمضان من كل عام

---

(١) راجع كتابنا: الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ـ ص٧٦، ٧٧، ٨٥ ـ دار الفكر العربى ١٩٩٤م.

بالامتناع التام عن الطعام والشراب وجميع الشهوات من الفجر إلى غروب الشمس، والزكاة وطريقة أدائها ومصارفها وأنواع الزكاة، والحج وما يشتمل عليه من طواف ووقوف بعرفة وسعى بين الصفا والمروة ورمى للجمار.. إلخ، أمور لا يشتمل عليها أى دين بالكيفية التى أتى بها الإسلام، وإذا كانت مقتبسة من أى دين فأين هو هذا الدين الذى جاء بمثل ذلك؟!

رابعًا: هل شاب جمع القرآن ما يشكك فى صحة النص القرآنى؟

١ـ لقد كان هناك كتَّاب معروفون اختارهم النبى ﷺ من بين صحابته يكتبون ما يمليه عليهم من الوحى القرآنى فور نزوله. وكانوا يكتبون على أى شىء يجدونه ميسوراً لهم مثل الورق أو الخشب أو قطع الجلد أو صفائح الحجارة أو العظام. وعدد كتَّاب الوحى ـ كما جاء فى المصادر الإسلامية ـ تسعة وعشرون كاتبًا، أشهرهم الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ، ومعهم معاوية والزبير بن العوام وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص وأبى بن كعب وزيد بن ثابت.

٢ ـ وبالإضافة إلى تدوين الوحى كان هناك طريق آخر موازٍ للتدوين هو حفظ القرآن عن ظهر قلب. وقد استمرت هذه العادة حتى يومنا هذا، وقد بلغ عدد «حفظة القرآن» فى حياة الرسول مئات من الصحابة ممن تخصصوا فى تلاوة القرآن وفى حفظه عن ظهر قلب، وقد أخبر الرسول أنه كان يقوم بمراجعة عامة للقرآن فى حضور جبريل –عليه السلام– فى شهر رمضان من كل عام، وأنه فى العام الأخير راجع عليه جبريل القرآن مرتين. وبذلك

أخذ القرآن شكله النهائى فى صدور الحفاظ قرب نهاية حياة الرسول، كما أن الكتّاب كانوا يضعون كل آية فى موضعها بتوجيهات من النبى ﷺ.

٣ ـ بعد وفاة الرسول بعام قُتل سبعون من حفظة القرآن فى معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب. وعلى أثر ذلك عهد الخليفة أبو بكر ـ بناء على اقتراح من عمر بن الخطاب ـ إلى زيد بن ثابت ـ وهو أحد كتّاب الوحى ـ بمهمة جمع وثائق القرآن المختلفة فى مجموعة مدونة سهلة الاستعمال. وتم وضع قاعدة للعمل، على أساسها لم يكن يعتمد أى مخطوط إلا إذا شهد شخصان على أنه مكتوب بإملاء الرسول. وبطبيعة الحال تم الاستعانة بحفظة القرآن من الصحابة. وبعد أن انتهى زيد من مهمته سلم النسخة الكاملة إلى أبى بكر الذى عهد بها قبل موته إلى عمر بن الخطاب، وسلمها عمر قبل موته إلى ابنته حفصة أم المؤمنين.

٤ ـ فى خلافة عثمان بن عفان شكل لجنة من أربعة نساخ منهم زيد بن ثابت نفسه. وقامت اللجنة بنسخ خمس نسخ من القرآن أرسلت إلى مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق. وقد اعتمدت اللجنة فى عملها على النسخة التى كانت محفوظة لدى السيدة حفصة أم المؤمنين، وراجعت اللجنة عملها على ما يحفظه الحفاظ من القرآن الكريم منذ عهد النبى ﷺ. وهذا هو المصحف المتداول الآن فى كل مكان فى العالم الإسلامى لدى جميع الفرق الإسلامية. ولم يختلف عليه أحد من المسلمين حتى الآن بعد مرور أربعة عشر قرنًا من الزمان. وقد أكد هذه الحقيقة عدد من المستشرقين منهم لوبلوا (Leblois) وموير (Muir) والمستشرق الألمانى المعاصر رودى

بارت(Rudi Paret) الذى يقول فى مقدمة ترجمته للقرآن: «ليس لدينا أى سبب يحملنا على الاعتقاد بأن هناك أى آية فى القرآن كله لم ترد عن محمد». ويريد بذلك أن يقول بأنه لا مجال للقول بأن أحداً بعد محمد تدخل فى نص القرآن بالحذف أو الإضافة.. إلخ(١).

لم يثبت أنه كانت هناك نسخ مخالفة للنسخة التى تم نسخها فى خلافة عثمان بن عفان. ولو كان لدى بعض الصحابة نسخ أخرى لأظهروها وعارضوا بها النسخة المعتمدة. وهذا أمر لم يحدث على مدى تاريخ المسلمين. وحتى بعض الفرق التى يعتبرها المسلمون منشقة عن الإسلام مثل الأحمدية المعاصرة نجدها تحتفظ بالنص القرآنى نفسه المعروف لدى بقية المسلمين دون زيادة أو نقصان.

٥ - أما ما أشيع عن عبد الله بن مسعود - وهو صحابى جليل - أنه كان يرى أن سورة الفاتحة والمعوذتين ليست من القرآن، فإنه لم يثبت إطلاقًا أنه قال بذلك. وقد أجمع علماء المسلمين الثقات على تبرئة ابن مسعود من هذا الزعم الباطل. ومن بين من قام بالرد على هذا الادّعاء وتفنيده كلٌّ من: الإمام فخر الدين الرازى، والقاضى أبى بكر، والإمام النووى، والإمام ابن حزم، والإمام الباقلانى وغيرهم. ولم يذكر لنا التاريخ أن أحداً من المسلمين قد تبنى هذا الرأى الباطل المنسوب كذبًا إلى ابن مسعود(٢).

---

(١) يراجع فى ذلك: مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز، ص ٣٤ وما بعدها، راجع أيضًا:

Rudi Paret:Der Koran. Übersetzung. Stuttgart 1980,P.5.

(٢) راجع كتابنا: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى. ص٩٧ وما بعدها - دار المعارف - ١٩٩٧م.

الفصل الثانى

النبى محمد ﷺ

النبى محمد ﷺ

أولا: هل جاء محمد بالإسلام للعرب أم لكل البشر؟

١ـ عندما أعلن محمد ﷺ دعوته على الناس فى أول إعلان له على الإطلاق قال لهم: «**إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة**». وهذا يعنى أنه دين جاء لكل البشرية منذ أول لحظة. فالإسلام لم يقدمه النبى ﷺ فى وقت من الأوقات على أنه دين عربى، ولكن بوصفه دينًا عالميًّا لكل البشر. ويؤكد ذلك فى حديث آخر حيث يقول: «**وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة**»(١).

٢ ـ المتتبع لآيات القرآن الكريم يستطيع أن يتبين بوضوح أن القرآن يدعو الناس – كل الناس– إلى دين الله. وهذه الصفة العالمية واضحة كالشمس فى آياته العديدة التى نزلت فى مكة قبل الهجرة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والسورة التى يفتتح بها القرآن وهى سورة الفاتحة تبدأ بقوله: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾، وهى سورة نزلت فى مكة قبل الهجرة النبوية، وقبل أن يكون للمسلمين دولة فى المدينة.

---

(١) رواه البخارى فى مواضع عديدة، انظر كتاب التيمم على سبيل المثال.

٣ ـ ومما سبق يتضح لنا أنه لم يكن هناك تغيير فى خطط النبى ﷺ، ولكن كان هناك تدرج فى التشريع . وهذا أمر منطقى وطبيعى، فلم يكن من المعقول أو الممكن إلغاء كل شىء درج عليه الناس بين عشية وضحاها؛ فالعادات المتأصلة فى النفوس يكون من الصعب محوها بسهولة . وقد ركز الإسلام فى البداية على ترسيخ العقيدة فى النفوس وتثبيتها فى العقول؛ لتكون الأساس الذى يبنى عليه تشريعاته، والقاعدة التى على أساسها يمكن تغيير ما درج عليه الناس . وقد سلك الإسلام هذا المسلك فى العديد من التشريعات مثل التدرج فى تحريم الخمر والربا وإلغاء الرق . . إلخ . وقد كانت الفترة المكية هى فترة تثبيت العقيدة، ومن هنا كان من السهل البناء عليها فى الفترة المدنيَّة .

ثانيًا: ما أسباب تعدد زوجات النبى ﷺ؟

١ ـ لقد تزوج النبى ﷺ السيدة خديجة وعمره خمسة وعشرون عامًا، أما خديجة فقد كانت سنها تقترب من الأربعين وكانت قد تزوجت قبله مرتين، وظلت له زوجة وحيدة إلى أن ماتت بعد أن أمضى معها حوالى ثمانية وعشرين عامًا . وظل وفيًا لذكراها طوال حياته لدرجة سببت الغيرة فى نفوس بعض زوجاته فيما بعد .

٢ ـ حياة النبى ﷺ، وما هو معروف من سيرته طوال حياته قبل وبعد البعثة، ينفى نفيًا قاطعًا أنه كان رجلاً شهوانيّا . وكيف لرجل تخطى الخمسين من عمره أن ينقلب فجأة إلى عبد للذة الجنسية، وقد كانت أمامه فى شبابه الفرص الكثيرة للاستمتاع - إذا أراد- مثل أقرانه من الشباب،

ولكنه كان عفيفًا طاهرًا، ولم يكن من بين زوجاته عذراء إلا عائشة، ومعظمهن كن أرامل، وقد كان زواجه منهن جميعًا لأهداف نبيلة إنسانية أو تشريعية، ولم يكن من بينها هدف الشهوة أو النهم الجنسى على الإطلاق[1].

٣ـ بعد أن تخطى الخمسين من عمره تزوج سودة بنت زمعة أرملة أحد صحابته، ولم يعرف عنها أنها كانت ذات جمال أو ثروة أو مكانة، ولكنه تزوجها من باب الرعاية لأسر صحابته الذين تحملوا التعذيب والتشريد فى سبيل الدعوة. أما زواجه فيما بعد من عائشة وحفصة فلم يكن إلا تأكيدًا للرابطة القوية بينه وبين صاحبيه: أبى بكر، وعمر.

٤ـ أما السيدة أم سلمة فقد مات زوجها متأثرًا بجراحه فى غزوة أحد وكانت مسنة، ولما أراد النبى ﷺ الزواج منها اعتذرت له نظرًا لكبر سنها ولكنه طيّب خاطرها وتزوجها لهدف إنسانى.

أما السيدة رملة بنت أبى سفيان فكانت قد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتنصر زوجها وتركها دون عائل، فأرسل النبى إلى النجاشى يطلبها إنقاذًا لها من غربتها، وإنقاذًا لها من أهلها فى مكة إذا عادت إليهم بعد أن كانت قد هجرتهم فى سبيل دينها، وأملاً فى أن يكون الزواج منها سببًا فى استمالة والدها ـ صاحب النفوذ فى مكة آنذاك ـ إلى الدخول فى الإسلام.

أما السيدة جويرية بنت الحارث فقد كانت من بين السبايا فى غزوة بنى المصطلق، وكان أبوها سيد قومه فأكرمها النبى ﷺ بالزواج منها وأعتقها وطلب من المسلمين أن يعتقوا سباياهم ففعلوا.

---

(١) راجع كتابنا: الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ص٣١/ ٤٢.

والسيدة صفية «اليهودية»، بنت سيد بنى قريظة تزوجها النبى ﷺ بعد أن أعطى لها حرية الاختيار بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاختارت البقاء عنده على العودة إلى أهلها(١).

٥ ـ أما زواجه من السيدة زينب بنت جحش ـ وقد كانت ابنة عمته ـ فقد كان لسبب تشريعى. فقد كانت زينب زوجة لزيد بن حارثة الذى كان النبى ﷺ قد تبناه ثم طلقت من زيد، وكانت عادة العرب تقضى بأن زوجة الابن بالتبنى لا تحل من بعده لأبيه الذى تبناه، فتزوجها النبى ﷺ ليلغى بذلك هذا المنع الذى لا مبرر له. وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله: ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا** (أى بعد طلاقها من زيد) **لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً** ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ثالثًا: ما مدى اليقين فى السنة النبوية؟

يشكك بعض علماء الإسلاميات فى الغرب فى صحة السنة النبوية، ويعتبرها جولدتسيهر (Goldzieher) من اختراع المسلمين فى العصور الأولى للإسلام(٢). وفيما يلى الرد على هذه الشبهة:

١ ـ السنة النبوية هى المصدر الثانى للإسلام بعد القرآن الكريم. والنبى ﷺ مأمور فى القرآن بتبليغ ما أنزل إليه من الوحى القرآنى، وفى الوقت نفسه

(١) راجع: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ عباس العقاد ص ١٩٢ وما بعدها ـ القاهرة ١٩٥٧م.

(٢) راجع كتابنا: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ١٠٦ وما بعدها، دار المعارف ١٩٩٧م.

مأمور بتبيين الوحى القرآنى[1] . وهذا البيان هو السنة النبوية التى تشمل قوله أو فعله أو ما أقره . وقد أشار النبى نفسه إلى ضرورة التمسك بسنته فى قوله فى خطبته المشهورة فى حجة الوداع : «**تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى**»[2] .

٢ ـ لسنا ننكر أن هناك الكثير من الأحاديث الموضوعة أو المكذوبة المنسوبة إلى النبى ﷺ ، ولكن هذا لم يكن فى يوم من الأيام خافيًا على علماء المسلمين فى مختلف العصور . ومن أجل ذلك فإنهم لم يفرطوا إطلاقًا فى ضرورة التدقيق الذى لا حد له فى رواية الأحاديث ، فقد وضع القرآن أمامهم أهم قاعدة من قواعد النقد التاريخى فى قوله : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ [الحجرات : ٦] . وتتمثل هذه القاعدة فى أن أخلاق الراوى تعد عاملاً هامّا فى الحكم على روايته ، وقد أفاد المسلمون إفادة عظيمة من هذه القاعدة وطبقوها على رواة الأحاديث النبوية ، وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدى على رواة الأحاديث هو الذى تطورت عنه بالتدريج قواعد النقد التاريخى[3] .

٣ ـ ونظرًا لأهمية السنة بالنسبة للإسلام فقد بذل علماء المسلمين جهودًا خارقة لتوثيقها وتمييز الثابت منها من غير الثابت ، وابتكروا علومًا جديدة للحديث النبوى لخدمة هذا الغرض ، فهناك علم الرجال ، وعلم الإسناد ،

(١) المائدة : ٦٧ ، النحل : ٤٤ ، ٦٤ .

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك .

(٣) راجع : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام للدكتور محمد إقبال ص ١٦٠ وما بعدها .

وعلم الجرح والتعديل وغيرها، وكلها تتتبع رواة الأحاديث وتدرس أحوالهم، وما ظهر من أمرهم وما خفى؛ للتأكد من مدى صدقهم فيما نقلوه عن الرسول. وبخاصة أن النبى نفسه قد حذر من الكذب عليه حين قال: «**من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[١].

٤ ـ كنموذج من بين النماذج العديدة لجهود علماء المسلمين فى توثيق الحديث النبوى نشير إلى جهود الإمام البخارى (٨١٠ـ٨٧٠ م) الذى أفنى حياته كلها فى خدمة الحديث النبوى. فقد جمع هذا العالم أكثر من نصف مليون حديث منسوبة إلى النبى ﷺ. ولكنه بعد الفحص والتدقيق لم يأخذ منها فى صحيحه نتيجة للمنهج العلمى الدقيق والشروط الصارمة التى وضعها إلا حوالى تسعة آلاف حديث، فإذا حذفنا منها الأحاديث المكررة لم يبق فى صحيح البخارى إلا حوالى ثلاثة آلاف حديث فقط. وهكذا صنع غيره من علماء الحديث.

٥ – بعد الجهود المضنية لعلماء الحديث فى سبيل توثيق الأحاديث النبوية اعتمد المسلمون ستة كتب فى هذا المجال هى: صحيح البخارى، وصحيح مسلم، وسنن كلٍّ من النسائى وأبى داود والترمذى وابن ماجة. وهناك مؤلفات إسلامية عديدة أشارت إلى الأحاديث الضعيفة والموضوعة التى يصل عددها إلى عشرات الآلاف.

ومن ذلك يتضح أن علماء المسلمين قد خدموا السنة النبوية بما لا نظير له لدى الأمم الأخرى، وأن الشك فيها جملة وتفصيلاً أمر لا مبرر له.

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

رابعًا: هل هناك تعارض فى الأحاديث النبوية؟

من الشبهات التى تثار حول الأحاديث النبوية أن هناك تعارضًا بين هذه الأحاديث، الأمر الذى يعنى إسقاط حجيتها، وردًّا على ذلك نضيف إلى ما سبق ما يلى:

١ - لقد أكد القرآن الكريم على الأخذ بما جاء به الرسول فى قوله: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر: ٧]، ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء: ٨٠]. وقد اشتملت الأحاديث النبوية على ما أتانا به الرسول وما نهانا عنه. ومن هنا فالسنة النبوية ضرورية لا نستطيع أن نتخلى عنها، وإلا كنا مخالفين للقرآن الكريم نفسه.

٢ - ليست هناك مشكلة فى تمييز الأحاديث الصحيحة من غير الصحيحة، فهذا أمر قد بذل فيه علماء المسلمين جهودًا خارقة منذ قرون - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى الرد على الشبهة السابقة - والسنة لا يمكن الاستغناء عنها؛ لأنها الأصل الثانى للإسلام، ولا يجوز التخلى عن هذا الأصل؛ بسبب توهم وجود تعارض فى بعض الأحاديث النبوية. فهذا التعارض - إن وجد - غير حقيقى، ويمكن بيان وجه الصواب فيه بالتأكد من صدق الروايات بناء على القواعد العلمية الدقيقة التى وضعها علماء الحديث فى هذا الشأن.

٣ - السنَّة النبوية شارحة لما أتى مجملاً فى القرآن الكريم، فكيف يمكن التخلى عنها بناء على أسباب متوهمة؟ إننا نحن المسلمين نؤدى صلاتنا

يوميّا بالطريقة التى وضحتها لنا السنة النبوية . وهذا التفصيل الوارد فى السنة بشأن الصلاة كما نؤديها لم يرد فى القرآن الكريم . وهناك أمثلة كثيرة مشابهة .

٤ ـ الكتب المقدسة للأديان السابقة وردت بطريقة مشابهة للطريقة التى وردت إلينا بها الأحاديث النبوية ، ولم يطلب أحد من أصحاب هذه الديانات التخلى عنها لوجود بعض التعارض فيها أو بعض الأخبار غير الموثقة ، فالعقل والمنطق يدعو فى مثل هذه الأحوال إلى ضرورة التثبت من المرويات . وهذا ما فعله علماء المسلمين بالنسبة للأحاديث النبوية منذ قرون عديدة .



الفصل الثالث

الفتوحات الإسلامية
وحقيقة الجهاد وقضية العنف

الفتوحات الإسلامية
وحقيقة الجهاد وقضية العنف

أولاً: هل انتشر الإسلام بالسيف؟

١- هناك قاعدة أساسية صريحة فى القرآن الكريم بالنسبة للحرية الدينية تقول: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ومن أجل ذلك جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة أساسًا بمشيئة الإنسان نفسه واقتناعه الداخلى: ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف: ٢٩]. وقد لفت القرآن الكريم نظر النبى ﷺ إلى هذه الحقيقة، وبيّن له أن عليه تبليغ الدعوة فقط، وأنه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام: ﴿**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ**﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾ [الشورى: ٤٨]. ومن ذلك يتضح أن كتاب المسلمين المقدس يرفض رفضًا قاطعًا إكراه أحد على اعتناق الإسلام.

٢- حدد الإسلام المنهج الذى يتحتم على المسلمين اتّباعه فى الدعوة إلى الإسلام ونشره فى كل مكان. وجاء هذا المنهج فى القرآن الكريم

مشتملاً على الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ [البقرة: ٨٣]. وقد وردت فى القرآن الكريم آيات تزيد على مائة وعشرين آية تفيد كلها أن نشر الإسلام أساسه الإقناع الهادئ، والتعليم المجرد، وترك الناس أحرارًا بعد عرض الدعوة عليهم ليقبلوها أو يردوها. وبعد فتح مكة ترك الرسول ﷺ أهلها قائلاً لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**». فلم يكرههم على الإسلام بعد الانتصار الحاسم عليهم (١).

٣- لم يحدث أن أجبر المسلمون يهوديًا أو مسيحيًا على اعتناق الإسلام. ومن هنا كان إعطاء الخليفة الثانى عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس من المسيحيين الأمان «**على حياتهم وكنائسهم وصلبانهم، لا يضار أحد منهم ولا يرغم بسبب دينه**». كما أن النبى ﷺ قد سجل فى أول دستور للمدينة بعد الهجرة أن اليهود أمة مع المسلمين يشكلون جميعًا المجتمع الجديد فى المدينة، واعترف لهم بحقهم فى البقاء على دينهم.

٤- ترفض المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه فى كتابها «الله مختلف تمامًا»(٢) مقولة انتشار الإسلام بالسيف وتقول: «لقد لعب التسامح العربى دورًا حاسمًا فى انتشار الإسلام، وذلك على العكس تمامًا من الزعم القائل بأنه قد انتشر بالنار والسيف. وقد أصبح هذا الزعم من الأغاليط الجامدة

(١) راجع: محمد الغزالى: مائة سؤال عن الإسلام ج١ ص١١٨، ١٢٠ وما بعدها- دار ثابت ١٩٨٣م.

(٢) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية تحت عنوان: «الله ليس كذلك» ونشرته دار الشروق.

ضد الإسلام»، وتقول أيضًا: «لقد كان أتباع الديانات الأخرى- أى المسيحيون واليهود والصابئة والوثنيون- هم الذين ألحوا من تلقاء أنفسهم فى اعتناق الإسلام»[1].

ومن المعروف أن جيوش المسلمين لم تذهب إلى جنوب آسيا أو غرب أفريقيا. وقد انتشر الإسلام هناك عن طريق التجار والمتصوفة المسلمين بعد أن رأى الناس عمليًّا سلوكهم وأخلاقهم وحسن معاملاتهم فانجذبوا إليهم وأقبلوا على الإسلام من تلقاء أنفسهم.

ثانيًا: هل كانت الفتوحات الإسلامية استعمارًا؟

١- الفتوحات الإسلامية لم تكن استعمارًا. فالاستعمار- كما عرفناه فى العصر الحديث- كان يقوم بنهب خيرات البلاد المستعمرة وتخريب اقتصادها، وعدم الاهتمام بتنميتها اقتصاديًّا وثقافيًّا وحضاريًّا، ولم يكن ذلك شأن الفتوحات الإسلامية، والتاريخ شاهد على ذلك. فالأندلس- وهى جزء من أوروبا- قد أصبحت بعد الفتح الإسلامى بلادًا مزدهرة على كافة المستويات. وكل مؤرخ منصف يستطيع أن يقارن بينها حينما كان المسلمون فيها وبين غيرها من البلاد الأوروبية حينذاك؛ ليرى مدى التقدم الذى حمله الفتح الإسلامى إليها. وقد كان هذا هو الشأن فى كل مكان

---

(1) Sigrid Hunke: Allah ist ganz anders.Horizont Verlag 1990.P.42f

راجع أيضًا كتابنا: الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ص ١٠٦ وما بعدها- دار الفكر العربى ١٩٩٤م.

دخله المسلمون. والآثار الإسلامية المعمارية والحضارية الباقية شاهدة على ذلك.

٢- الجزية كانت عبارة عن ضريبة يدفعها أهل البلاد المفتوحة نظير قيام الدولة الإسلامية بحمايتهم وتأمينهم والدفاع عنهم. وكان يحدث أنه إذا دخل منهم أحد فى خدمة الجيش الإسلامى فإن الجزية تسقط عنه. ويضرب السير توماس أرنولد فى هذا الصدد مثلاً بقبيلة الجراجمة، وهى قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، وسالمت المسلمين، وتعهدت أن تكون عونًا لهم، وأن تقاتل معهم فى مغازيهم على شريطة ألا تفرض عليها الجزية(١).

٣- الجهاد فى سبيل الله بهدف الحصول على الغنائم مرفوض فى الإسلام، بل يعد جريمة. وقد سئل النبى ﷺ عن رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضًا من الدنيا - أى يبتغى الحصول على الغنائم- فقال: «**لا أجر له**، وكرر ذلك ثلاث مرات»(٢).

٤- القول بأن الفتوحات الإسلامية كانت توسعات استعمارية ذات طابع اقتصادى يعد عملية إسقاط لما فعله الاستعمار الغربى بالبلاد الإسلامية فى العصر الحديث على فتوحات المسلمين فى السابق. وبينهما

---

(١) راجع: سير توماس أرنولد (Sir Thomas W.Arnold) الدعوة إلى الإسلام ترجمة حسن إبراهيم وآخرين- مكتبة النهضة المصرية ص٧٩، ٨٠.

(٢) راجع: محمد الغزالى: مائة سؤال عن الإسلام ج٢ ص٩٢ وما بعدها- دار ثابت ١٩٨٤م.

فرق شاسع. ونضرب هنا مثالاً واحداً فقط من بين أمثلة عديدة تبين لنا انتفاء الجانب الاستعمارى الاقتصادى فى الفتوحات الإسلامية. ففى المعاهدة التى أبرمها خالد بن الوليد مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة سجل فيها نصّا يقول: «**فإن منعناكم (أى قمنا بحمايتكم) فلنا الجزية وإلا فلا**». وقد حدث بالفعل أن قام المسلمون برد الجزية إلى أهل المدن المفتوحة فى الشام حينما شعروا أنهم غير قادرين على توفير الحماية اللازمة لهذه المدن، وكان ذلك فى زمن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب حينما حشد الإمبراطور هرقل جيشًا ضخمًا لحرب المسلمين وشغل المسلمون حينذاك بالمعركة مع جيش الروم. وكتب القائد العربى لأهل هذه المدن قائلاً: «**إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم**»[(١)].

ثالثًا: ما موقف المسلمين من الحضارات القديمة ومن حريق مكتبة الإسكندرية؟

١- ليس صحيحًا أن المسلمين لم يكونوا يحترمون الحضارات القديمة. فقد استفادوا مما كان إيجابيّا لدى هذه الحضارات، وترجموا إلى العربية الكثير من الكتب اليونانية والفارسية والهندية وغيرها، وإيمانًا منهم بأن التراث الإنسانى يشتمل على خبرات وتجارب وعلوم الشعوب المختلفة،

---

(١) راجع: الدعوة إلى الإسلام للسير توماس أرنولد ص٧٩.

وينبغى الاستفادة منه، وقد ورد فى هذا الشأن قول النبى ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها**»[١]، ومن المرويات الإسلامية المأثورة: «**اطلبوا العلم ولو فى الصين**»[٢] أى اطلبوا العلم حتى ولو كان فى يد من لا يدينون بدينكم، وأيضًا حتى لو كان فى أبعد مكان فى الدنيا. وكانت الصين تعد فى نظر العرب حينذاك أبعد مكان فى الدنيا.

٢- يعبر الفيلسوف المسلم ابن رشد عن الموقف الإسلامى إزاء تراث الحضارات القديمة بقوله: «إن الشرع يوجب الاطّلاع على كتب القدماء ما دام الهدف الذى يقصدون إليه هو ذات المقصد الذى حثنا عليه الشرع، وهو النظر العقلى فى الموجودات وطلب معرفتها واعتبارها» ثم يقول: «ننظر فى الذى قالوه فى ذلك وما أثبتوه فى كتبهم. فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم»[٣].

٢- الحقيقة العلمية والتاريخية تؤكد أن المسلمين لم يحرقوا مكتبة الإسكندرية على الإطلاق. وقد ألصقت بهم هذه التهمة ظلمًا وعدوانًا. وأذاع خصوم المسلمين هذه الإشاعة التى ليس لها أساس على نطاق واسع حتى أصبح الناس يرددونها وكأنها حقيقة مستقرة. وقد انتشرت فى القرن الثالث عشر الميلادى انطلاقًا من روح الحروب الصليبية، ولا تزال تتردد

---

(١) رواه ابن ماجة فى كتاب الزهد.

(٢) انظر كشف الخفاء ج١ ص ١٣٨.

(٣) راجع: فصل المقال لابن رشد ص١٧ (ضمن كتاب: فلسفة ابن رشد). بيروت ١٩٨٢م.

للأسف حتى يومنا هذا رغم أن المحققين من العلماء أثبتوا بطلانها . ومؤدى هذه الإشاعة أن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب قد أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية القديمة ونسب إليه القول : «إن كانت هذه الكتب تشتمل على ما هو موجود فى القرآن فلا فائدة منها ولسنا فى حاجة إليها ، وإن كان ما فيها يتعارض مع القرآن فلا مفر من إبادتها» . وقيل أيضًا : إن العرب المسلمين قد استخدموا هذه الكتب وقودًا للحمامات العامة لمدة ستة أشهر .

٤- لقد بيّنت المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه (Sigrid Hunke) فى كتابها (الله مختلف تمامًا . .) أن العرب عندما دخلوا الإسكندرية عام ٦٤٢م لم تكن هناك مكتبة فى الإسكندرية ، فقد تم إحراقها قبل ذلك بقرون كما أنه لم تكن هناك حمامات عامة ، وبيّنت أن المكتبة القديمة الملحقة بالأكاديمية التى أسسها فى الإسكندرية الملك بطليموس الأول سوتر (Soter) حوالى عام ٣٠٠ ق . م قد أحرقت عام ٤٧ ق . م عندما حاصر يوليوس قيصر المدينة . وقد أعادت كليوباترا تشييد المكتبة وزودتها بكتب من برجامون .

٥- شهد القرن الثالث الميلادى بداية التدمير المنظم للمكتبة ، فقد عطل القيصر كاراكالا (Caracalla) الأكاديمية . وقام المتحمسون الدينيون بتدمير المكتبة عام ٢٧٢م بوصفها عملاً وثنيًا . وفى عام ٣٩١م استصدر البطريرك تيوفيلوس (Theophilos) من القيصر تيودوسيوس (Theodosios) إذنًا بالموافقة على تدمير الأكاديمية الباقية ، وإحراق ما تبقى من المكتبة الملحقة بها ، والتى كانت تحوى ثلاثمائة ألف لفافة من لفائف الكتب ، وذلك

بهدف إقامة كنيسة ودير بدلاً منها . واستمر التدمير فى القرن الخامس عن طريق الإغارة على العلماء الوثنيين وعلى أماكن عبادتهم والقيام بتدمير مكتبتهم (١) .

ومما تقدم يتضح لنا مدى التزييف المتعمد للتاريخ بهدف تشويه سمعة الإسلام والمسلمين وإظهارهم بمظهر أعداء العلم والحضارة . وهم بريئون من كل ذلك تمامًا .

رابعًا: ما حقيقة الجهاد فى الإسلام؟

١ - لقد شاع فى اللغات الأجنبية ترجمة مصطلح الجهاد بالحرب المقدسة ، والإسلام لا يعرف مصطلح الحرب المقدسة . فهناك فقط حرب مشروعة وحرب غير مشروعة . وقد أسيء فهم مصطلح الجهاد فى غالب الأحيان . فالجهاد معناه بذل الجهد . ومن هنا فهو ينقسم إلى قسمين أحدهما : جهاد النفس ، وثانيهما : الجهاد بمعنى الحرب المشروعة . ومن المعروف فى الإسلام أن النوع الأول يطلق عليه الجهاد الأكبر الذى ينصب على محاربة الإنسان لنوازعه الشريرة ، والتغلب على أهوائه ، وتصفية نفسه من كل الصفات الذميمة ، وتطهيرها من الحقد والحسد والكراهية للآخرين ، وبذلك يكون أهلاً للقرب من الله -سبحانه وتعالى . أما النوع الثانى من الجهاد فيطلق عليه الجهاد الأصغر بمعنى الحرب المشروعة .

---

(1) Sigrid Hunke: Allah ist ganz anders.P.85-90.

راجع أيضًا كتابنا : الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ص ١٠٠ وما بعدها .

٢- الحرب المشروعة فى الإسلام أو «الجهاد» هى حرب دفاعية هدفها رد العدوان فقط. وآيات القرآن واضحة فى هذا الشأن. فقد أذن الله للمسلمين بقتال أعدائهم الذين اعتدوا عليهم فى قول القرآن: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**﴾ [الحج: ٣٩]، ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٠]، وهذا يبين لنا أنه على الرغم من الإذن بالقتال دفاعًا عن النفس فإن القرآن يحذر من مجاوزة الحد فى ذلك إلى الاعتداء. فالله لا يحب المعتدين.

وكراهية الإسلام للقتال وإراقة الدماء تعد موقفًا مبدئيًّا. فالاستثناء إذن هو القتال لرد العدوان: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ**﴾ [البقرة: ٢١٦]. فالبدء بالعدوان على الآخرين أمر مرفوض إسلاميًّا. وليس له سند فى الإسلام.

٣- وإذا كان الجهاد يعنى الحرب الدفاعية فإن ذلك لا يقتصر على القتال، فقد يكون الجهاد بالمال أو بالنفس أو بالفكر أو بأى وسيلة أخرى تساعد على رد العدوان فى كل أشكاله وصوره. والهدف هو حماية المجتمع الإسلامى والدفاع عنه وعن عقيدته التى يؤمن بها، وهذا حق مشروع لكل أمة من الأمم وتؤكده المواثيق الدولية فى العصر الحديث.

٤- إذا وجد المسلمون لدى عدوهم رغبة فى السلم ووقف العدوان فالإسلام يأمرهم أن يردوا على ذلك بالإيجاب: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾ [الأنفال: ٦١]. والإسلام فضلاً عن ذلك يدعو إلى

التعايش السلمى مع الآخرين، وإقامة علاقات طيبة معهم ما داموا لا يعتدون على المسلمين، وهنا نجد القرآن الكريم يحث المسلمين على التعامل معهم على أساس من العدل والإنصاف والبر والإحسان: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة: ٨]، وهذا يبيّن لنا أن هدف الإسلام هو نشر السلام والتسامح بين الناس، والتعاون فيما بينهم من أجل خير الإنسان وسعادته واستقراره.

ومن هنا فإن ما تروجه بعض وسائل الإعلام العالمية من أن الإسلام دين يحض على العدوان والتطرف والتعصب والقتل والإرهاب افتراء ظالم لا أساس له فى تعاليم الإسلام، فالإسلام على النقيض من ذلك تمامًا، إنه دين الرحمة والسلام. وسنزيد هذه النقطة إيضاحًا فى الفقرتين التاليتين:

خامسًا: هل الإسلام يدعو إلى التطرف والعنف؟

١- الإسلام دين الرحمة والتسامح، يدعو إلى العدل والسلام ويصون حرية الإنسان وكرامته. وهذه ليست مجرد شعارات يرفعها الإسلام، وإنما هى مبادئ أساسية راسخة قام عليها بنيان الإسلام. فقد أرسل الله نبيه محمدًا ﷺ ﴿ **رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] - كما ورد ذلك فى القرآن الكريم. ووصف النبى رسالته بقوله: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(١)، ومنح الإسلامُ الإنسانَ حرية الاختيار حتى فى أمور الاعتقاد: ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف: ٢٩]. والدعوة

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد.

إلى الإسلام تقوم على الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى لا على الإكراه والإرغام. كما أمر الإسلام بالعدل والإحسان، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والإفساد فى الأرض[1]، ودعا إلى مقابلة السيئة بالحسنة[2]، وقد عفا النبى ﷺ عن أهل مكة عند فتحها رغم كل الذى صنعوه معه ومع أصحابه من الظلم والاضطهاد والقتل والتعذيب، وقال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

٢- وهناك تطابق تام بين الإسلام والسلام. فكلمة الإسلام مشتقة من الأصل ذاته الذى اشتق منه لفظ السلام. وقد وصف الله نفسه فى القرآن الكريم بأنه السلام. وتحية المسلمين هى السلام تذكيراً لهم باستمرار بأن السلام هدف رئيسى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان، والمسلم يتجه فى نهاية صلاته كل يوم خمس مرات بتحية الإسلام إلى نصف العالم ناحية اليمين ثم بعد ذلك إلى النصف الآخر ناحية الشمال، الأمر الذى يرمز إلى توجه المسلمين بأمنيات السلام للعالم كله.

٣- ومن كل ذلك يتضح الطابع السلمى للإسلام، فليس هناك مكان فى هذا الدين للعنف أو التشدد، أو التعصب أو التطرف، أو القهر والإرهاب وترويع الآمنين، أو الاعتداء على حياتهم وممتلكاتهم. فمقاصد الشريعة الإسلامية تتمثل فى حماية الحقوق الأساسية للإنسان، وبصفة خاصة حماية حياته ودينه وعقله وأسرته وممتلكاته. ومن هنا حرّم الإسلام الاعتداء على الآخرين بأى شكل من الأشكال لدرجة أنه جعل الاعتداء

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) فصلت: ٣٤.

على فرد واحد من أفراد الإنسانية كأنه اعتداء على البشرية كلها : ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة : ٣٢] . فكل فرد يمثل الإنسانية فى شخصه . وهذه الإنسانية التى يحرص الإسلام على حمايتها تتمثل فى احترام كل فرد بشرى للآخر : احترام حريته وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة، وقد ورد فى الحديث الشريف : « **كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه** »(١) ، كما جاء فى حديث آخر : « **لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا** » (٢) ، كما دعا الإسلام إلى التعايش السلمى بين الشعوب وإلى معاملة غير المسلمين بالعدل والإنصاف - كما يقول القرآن الكريم - ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة : ٨] .

٤- ومسئولية الحفاظ على أمن المواطنين واستقرارهم تعد مسئولية مشتركة بين الناس جميعًا ، وتحمُّل هذه المسئولية هو السبيل إلى الاستقرار والأمن فى مواجهة أخطار الفساد والإفساد . فنحن جميعًا- كما جاء فى حديث شريف- : « **مثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا** »(٣) .

---

(١) رواه الإمام مسلم فى كتاب البر .

(٢) رواه أبو داود فى كتاب الأدب .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الشركة .

سادسًا: ما موقف الإسلام من التعصب والإرهاب؟

١- الإسلام دين لا يعرف التعصب على الإطلاق، وبالتالى فإنه لا يدعو أتباعه إلى التعصب. ومصادر الإسلام فى القرآن والسنة لا تشتمل على شىء من هذا القبيل.

فالدعوة إلى الإسلام- كما يشير القرآن الكريم- تقوم على أساس من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى. وهذه الأساليب بعيدة تمامًا عن كل شكل من أشكال التعصب. ومن هنا رأينا النبى ﷺ يقول لكفار مكة بعد رفضهم دعوته لهم إلى الإسلام: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [الكافرون: ٦].

٢- أما ما يتصل بالأديان السماوية السابقة فإن الإسلام يعتبر الإيمان بأنبياء الله السابقين على محمد ﷺ عنصرًا أساسيًّا من عقيدة المسلم. وهذا ما يشير إليه القرآن فى وضوح تام: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٦]. فالموقف الإسلامى إزاء الأنبياء جميعًا هو عدم التفريق بين أحد منهم، وتلك صورة فى التسامح الدينى لا مثيل لها لدى أتباع أى دين من الأديان. فهل هناك مجال للتعصب بأى شكل من الأشكال فى تعاليم دين بهذا الوصف؟

٣- يدعو الإسلام الناس جميعًا إلى التآلف والتعارف رغم الاختلافات التى بينهم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ [الحجرات: ١٣]. كما يدعو الإسلام المسلمين فى صراحة

ووضوح إلى التعايش السلمى مع غير المسلمين، كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الممتحنة: ٨].

٤- الإسلام دين يدعو إلى الصفح والعفو ﴿**وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ويدعو إلى مقابلة الإساءة بالإحسان على أمل أن ينقلب العدو إلى صديق، كما يقول القرآن الكريم: ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [فصلت: ٣٤].

٥- فى حديث للنبى ﷺ قال: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**»(١)، وهذه دعوة إلى نبذ التعصب؛ لأن التنفير ينطلق من منطلق التعصب، أما التبشير فينطلق من منطلق التسامح. وإذا كان الإسلام يرفض التعصب فإنه بالتالى يرفض الإرهاب والتطرف وترويع الآمنين وقتل الآخرين، بل يعتبر الإسلام الاعتداء على فرد واحد كأنه اعتداء على البشرية كلها: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ [المائدة: ٣٢].

٦- من ذلك يتضح أن إلصاق تهمة التعصب بالإسلام لا تقوم على أساس، وليس لها أى سند من تعاليم الإسلام، وإذا كان بين المسلمين بعض المتعصبين أو المتطرفين أو الإرهابيين فلا يرجع ذلك بأى حال من الأحوال إلى تعاليم الإسلام، وإنما يرجع إلى فهم خاطئ وتأويل باطل

(١) متفق عليه.

لتعاليم الإسلام . والإسلام لا يتحمل وزر ذلك ، وينبغى التفريق بين التعاليم السمحة للإسلام وبين السلوكيات الخاطئة لبعض المسلمين . ومن ناحية أخرى نجد أن التعصب موجود لدى بعض الجماعات فى كل الأديان ، والإرهاب أصبح ظاهرة عالمية لا يختص بها أتباع دين معين دون بقية الأديان ، وهذه حقيقة ماثلة أمام أعين الجميع فى عالمنا المعاصر . فهل الإسلام هو الذى أفرز هذه الظاهرة العالمية بين أتباع جميع الأديان؟ !



الفصل الرابع

الإسلام وقضايا الإنسان

الإسلام وقضايا الإنسان

أولا: ما حقيقة العلاقة بين الله والإنسان؟

١- لقد خلق الله الإنسان وجعله خليفة فى الأرض، وسخر له الكون كله بسمائه وأرضه وما بينهما، وطلب منه عمارة الأرض، وذلك يدل على أن الله أراد للإنسان أن يكون سيدًا فى هذا الكون، ولكنه فى الوقت نفسه مخلوق لله فلا يجوز له أن ينسى هذه الحقيقة، وبهذا المعنى فهو عبد لله. ولكن ليس معنى ذلك عبودية المذلة والاحتقار، فقد أعطى الله له الحرية كاملة لقبول طاعة الله أو عصيانه، وللإيمان أو الكفر به: ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف: ٢٩]. والحرية على النقيض تمامًا من العبودية. فالإنسان دائمًا فى موقف الاختيار، ولذلك فهو مسئول عما يفعل: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ [الجاثية: ١٥].

٢- لقد كرم الله الإنسان، وفضله على كثير من خلقه- كما أخبر القرآن الكريم-: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وهذه الكرامة التى منحها الله للإنسان مناقضة تمامًا للمذلة والاحتقار. وعندما خلق الله الإنسان نفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ**

مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، وفى هذه النفخة الروحية الإلهية تكمن العلاقة الحميمة بين الله والإنسان. فكل فرد من أفراد الإنسان يحمل فى داخله شيئًا من هذه النفخة الإلهية التى تشعر الإنسان بأن الله معه فى كل زمان وفى كل مكان: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

٣- يبيّن لنا القرآن الكريم أن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد(١)، وأنه قريب يجيب دعوة من يدعوه(٢)، وأنه رحيم بعباده، فهو أرحم الراحمين، وقد وسعت رحمته كل شىء(٣). وإذا كان قد ورد فى القرآن وصفه -سبحانه- بالجبار مرة واحدة، وبالقاهر مرتين، وبالقهار ست مرات، فقد ورد فى القرآن أيضًا وصفه بالرحمن سبعًا وخمسين مرة، وبالرحيم مائة وخمس عشرة مرة، بالإضافة إلى البسملة فى بدايات السور التى ورد فيها وصفه بالرحمن الرحيم مائة وأربع عشرة مرة، كما ورد وصفه بأنه أرحم الراحمين أربع مرات، وبأنه رءوف عشر مرات، وهذا عدا المرات الكثيرة التى أضيفت فيها الرحمة إليه. ولهذا كله دلالة عميقة على طبيعة الصلة الحميمة بين الله والإنسان، فهى صلة القرب والرحمة والاستجابة، فالله أرحم بخلقه من الأم على ولدها. وهذا ما يشعر به كل مسلم فى أعماق نفسه.

---

(١) سورة ق: ١٦.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) الأعراف: ١٥٦.

ثانيًا: ما موقف الإسلام من العقل الإنسانى؟

١- لعل الإسلام هو الدين الوحيد الذى أعلى من شأن العقل الإنسانى، ورفع من مكانته. فالعقل هو مناط التكليف والمسئولية، وبه يعرف الإنسان خالقه ويدرك أسرار الخلق وعظمة الخالق. والقرآن فى خطابه للإنسان يخاطب عقله، ويحثه على النظر فى الكون، والتأمل فيه، ودراسته من أجل خير البشرية وعمارة الأرض ماديّا ومعنويّا. وليس فى الإسلام شىء يناقض العقل أو يصادم الفكر السليم أو يتعارض مع حقائق العلم.

٢- لقد طلب الإسلام من الإنسان ضرورة استخدام عقله، وعاب على الذين يعطلون قواهم الإدراكية وعلى رأسها العقل من أداء وظائفها. ولذلك يعتبر القرآن هؤلاء أناسًا قد تخلوا عن إنسانيتهم فيقول: ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ** ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. كما جعل القرآن عدم استخدام العقل ذنبًا من الذنوب. ولذلك يقول عن الكفار يوم القيامة: ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ** ﴾

[الملك: ١٠]

٣- يلفت الإسلام نظر الإنسان إلى أن الله قد سخر له هذا الكون كله وأن واجبه أن يستخدم عقله فى توظيف كل شىء من أجل خير الإنسان وعمارة الأرض: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [هود: ٦١]،

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣].

فالكون كله إذن مجال للعقل الإنسانى يصول فيه ويجول دون حجر على عقل أو مصادرة لفكر طالما كان ذلك من أجل خير الإنسان. فكل ما ينفع الناس يشجع الإسلام عليه.

٤- النصوص الدينية فى الإسلام ملزمة للإنسان المسلم فيما يتصل بالأصول والتشريعات الدينية. ولكن الإنسان له حرية الاجتهاد فى أمور الدنيا. وهذا ما أشار إليه النبى ﷺ فى قوله: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»[1]. فمساحة حرية الفكر والبحث العلمى فى الإسلام مساحة واسعة ومكفولة للإنسان. وكل ما فى الأمر أنه لا يجوز لأحد أن يمس حرمة المقدسات الدينية. وكل دين له مقدسات يعتز بها. فمحاولة العبث بهذه المقدسات وعلى رأسها النصوص الدينية المقطوع بصحتها كالوحى القرآنى والسنة الصحيحة بأى شكل من الأشكال بهدف تغييرها أو تبديلها بالحذف أو الإضافة أو السخرية منها محاولات مرفوضة، بل وآثمة، وتعد عدوانًا على النظام العام فى المجتمع بالإضافة إلى كونها إثمًا دينيّا. أما ما عدا ذلك من مجالات أخرى فإن فى الكون كله بأرضه وسمائه وما بينهما مجالاً لا حد له أمام العقل الإنسانى للبحث والاجتهاد والاختراع والابتكار، والإبداع فى كل صوره وأشكاله.

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الفضائل.

ثالثًا: هل الإسلام دين يدعو إلى التواكل؟

١- من يتأمل فى آيات القرآن الكريم يتأكد عن يقين أن الإسلام دين يحث على العمل ويدفع الإنسان دفعًا إليه؛ فالعمل هو الحياة، وبدون العمل تتوقف الحياة. ومن هنا يربط القرآن فى كثير من آياته بين الإيمان والعمل الصالح، وهذا العمل الصالح يشمل كل عمل يؤديه الإنسان دينيّا كان هذا العمل أم دنيويّا طالما قصد به وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم. والأمر بالعمل فى القرآن واضح لا غموض فيه: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة: ١٠٥]، بل إن القرآن يحث المسلمين على العمل حتى فى يوم الجمعة الذى يعد يوم راحة لدى المسلمين: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ** (أى صلاة الجمعة) **فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ [الجمعة: ١٠].

٢- يحث النبى ﷺ، على العمل حتى فى آخر لحظة فى حياة الإنسان ونهاية العالم، ومن هنا كان قوله: «**إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة (أى شجيرة صغيرة) فإذا استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل**»[١]. وقد رفض النبى انقطاع بعض الناس للعبادة فى المسجد واعتمادهم على غيرهم فى الحصول على طعامهم وشرابهم. وامتدح من يعمل ويأكل من كسب يده، وأثنى على اليد العاملة بأنها يد يحبها الله ورسوله.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ج٣ ص١٩١ .

٣- كان النبى ﷺ قدوة المسلمين جميعًا بنص القرآن يعمل ويخطط، ويتدبر الأمور، ويعد لكل شىء عدته، ويأخذ بالأسباب، ثم يتوكل على الله. فالتوكل على الله لا يعنى ترك العمل، وعدم الأخذ بالأسباب، وإنما هو خطوة تالية بعد إعداد كل شىء. ومن شأن هذا التوكل أن يذكّر الإنسان بالله ويزوده بطاقة روحية تجعله أكثر قدرة على التغلب على الصعاب ومواجهة المشكلات بعزيمة لا تلين. فالتوكل على الله إذن قوة إيجابية دافعة وليس سلبية أو تواكلاً.

٤- التواكل يعنى عدم الأخذ بالأسباب، وعدم العمل اعتمادًا على أن الله سيفعل كل شىء حسبما يريد، وهذا أمر مرفوض فى الإسلام. فالله لا يعين إنسانًا لا يساعد نفسه، ولكنه مع من يعمل ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

وقد طرد عمر بن الخطاب بعض المتواكلين المنقطعين للعبادة فى المسجد اعتمادًا على أن غيرهم يرعاهم ويقوم بأمرهم وقال كلمته المشهورة: «إن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة»، واستشهد بحديث النبى ﷺ الذى يقول: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»(١) أى اعملوا واعتبروا بالطير التى تخرج فى الصباح سعيًا وراء قوتها وبطونها خاوية، وتعود آخر اليوم وقد امتلأت بطونها.

رابعًا: ما موقف الإسلام من الديمقراطية وحقوق الإنسان؟

١- يعد الإسلام أول من نادى بحقوق الإنسان وشدد على ضرورة حمايتها. وكل دارس للشريعة الإسلامية يعلم أن لها مقاصد تتمثل فى

---

(١) رواه ابن ماجة فى كتاب الزهد.

حماية حياة الإنسان ودينه وعقله وماله وأسرته. والتاريخ الإسلامى سجل للخليفة الثانى عمر بن الخطاب مواجهته الحاسمة لانتهاك حقوق الإنسان وقوله فى ذلك: «**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!**».

٢- تنبنى حقوق الإنسان فى الإسلام على مبدأين أساسيين هما: مبدأ المساواة بين كل بنى الإنسان، ومبدأ الحرية لكل البشر. ويؤسس الإسلام مبدأ المساواة على قاعدتين راسختين هما: وحدة الأصل البشرى، وشمول الكرامة الإنسانية لكل البشر. أما وحدة الأصل البشرى فإن الإسلام يعبر عنها بأن الله قد خلق الناس جميعًا من نفس واحدة. فالجميع إخوة فى أسرة إنسانية كبيرة لا مجال فيها لامتيازات طبقية. والاختلافات بين البشر لا تمس جوهر الإنسان الذى هو واحد لدى كل البشر. ومن هنا فهذه الاختلافات ينبغى- كما يشير القرآن الكريم- أن تكون دافعًا إلى التعارف والتآلف والتعاون بين الناس وليس منطلقًا للنزاع والشقاق: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣].

أما القاعدة الأخرى للمساواة فهى شمول الكرامة الإنسانية لكل البشر. وقد نص القرآن على ذلك فى قوله: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ [الإسراء: ٧٠]. فالإنسان بهذا التكريم جعله الله خليفة فى الأرض، وأسجد له ملائكته، وجعله سيدًا فى هذا الكون، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض. فالإنسان بذلك له مكانته ومكانه المفضل بين الخلق جميعًا. وقد منح الله هذه الكرامة لكل الناس بلا استثناء؛ لتكون سياجًا من

الحصانة والحماية لكل فرد من أفراد الإنسان، لا فرق بين غنى وفقير وحاكم ومحكوم، فالجميع أمام الله وأمام القانون وفى الحقوق العامة سواء.

أما المبدأ الثانى الذى ترتكز عليه حقوق الإنسان فهو مبدأ الحرية. فقد جعل الله الإنسان كائنًا مكلفًا ومسئولاً عن عمارة الأرض وبناء الحضارة الإنسانية. وليست هناك مسئولية دون حرية، حتى فى قضية الإيمان والكفر التى جعلها الله مرتبطة بمشيئة الإنسان ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف: ٢٩]. وهكذا تشمل الحرية كل الحريات الإنسانية دينية كانت أم سياسية أم فكرية أم مدنية.

٣- الحكم فى تعاليم الإسلام لا بد أن يقوم على أساس من العدل والشورى. وقد أمر الله الناس فى القرآن بالعدل وألزمهم بتطبيقه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [النساء: ٥٨] والآيات فى ذلك كثيرة. أما الشورى فهى مبدأ أساسى ملزم. وكان النبى ﷺ يستشير أصحابه ويأخذ برأى الأغلبية وإن كان مخالفًا لرأيه. وأظهر مثل على ذلك خروج المسلمين إلى غزوة أحد، فقد كان الرسول ﷺ يرى عدم الخروج، ولكن الأكثرية كانت ترى الخروج. فنزل على رأيهم وخرج، وكانت الهزيمة للمسلمين. ومع ذلك شدد القرآن على ضرورة الشورى، فقال مخاطبًا النبى: ﴿ **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ولا يلتفت فى هذا الصدد إلى رأى قلة من الفقهاء الذين يزعمون أن الشورى غير ملزمة، فهذا الزعم مخالف للنصوص الدينية الصريحة.

وقد ترك الإسلام للمسلمين حرية اختيار الشكل الذى تكون عليه الشورى طبقًا للمصلحة العامة. فإذا كانت المصلحة تقتضى أن تكون الشورى بالشكل المعروف الآن فى الدول الحديثة، فالإسلام لا يعترض على ذلك. وكل ما فى الأمر هو التطبيق السليم مع المرونة طبقًا لظروف كل عصر وما يستجد من تطورات محلية أو دولية.

ومن ذلك يتضح مدى حرص الإسلام على حقوق الإنسان وصيانتها، وحرصه على التطبيق السليم لمبدأ الشورى أو الديمقراطية بالمفهوم الحديث.

٤- الإسلام أتاح الفرصة لتعددية الآراء، وأباح الاجتهاد حتى فى القضايا الدينية طالما توافرت فى المجتهد شروط الاجتهاد. وجعل للمجتهد الذى يجتهد ويخطئ أجرًا، وللذى يجتهد ويصيب أجرين. والدارس لمذاهب الفقه الإسلامى المعروفة يجد بينها اختلافات فى وجهات النظر فى العديد من القضايا. ولم يقل أحد إن ذلك غير مسموح به. ومن هنا نجد أن الإسلام يتيح الفرصة أمام الرأى الآخر؛ ليعبر عن وجهة نظره دون حرج مادام الجميع يهدفون إلى ما فيه خير المجتمع والحفاظ على أمنه واستقراره.

خامسًا: ما موقف الإسلام من الفنون؟

١- الإسلام دين يحب الجمال ويدعو إليه فى كل شىء، والنبى ﷺ يقول: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[١]. والفن هو فى حقيقته إبداع جمالى لا يعاديه الإسلام. وغاية ما فى الأمر أن الإسلام يجعل الأولوية للمبدأ الأخلاقى على المبدأ الجمالى، بمعنى أنه يجعل الثانى مترتبًا على الأول ومرتبطًا به. وهذا هو الموقف المبدئى للإسلام إزاء جميع أشكال الفنون.

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان.

وهناك معيار إسلامى للحكم على أى فن من الفنون يتمثل فى قاعدة تقول: «حسنه حسن، وقبيحه قبيح».

والقرآن الكريم فى العديد من آياته يلفت الأنظار إلى ما فى الكون من تناسق وإبداع وإتقان، وما يتضمنه ذلك من جمال وبهجة وسرور للناظرين[1]، ومن هنا لا يعقل أن يرفض الإسلام الفن إذا كان جميلاً. أما إذا اشتمل على القبح بما يعنيه ذلك من قبح مادى ومعنوى فإن الإسلام يرفضه ولا يوافق عليه.

٢- وترتيبًا على ما تقدم فإن الفن إذا كان هدفه المتعة الذهنية، وترقيق الشعور، وتهذيب الأحاسيس، فلا اعتراض عليه، ولكن إذا خرج عن ذلك وخاطب الغرائز الدنيا فى الإنسان، وخرج عن أن يكون فنًّا هادفًا فإنه حينئذ لا يساعد على بناء الحياة، بل يعمل على هدمها، وبذلك يخرج عن أن يكون فنًّا، بل يصير نوعًا من اللهو المذموم والعبث المرفوض، وهذا أمر لا يقره الإسلام.

٣- إذا كانت الموسيقى والغناء تحمل إلينا ألحانًا جميلة وكلمات مهذبة وأنغامًا راقية، وأصواتًا جميلة، فذلك لا يرفضه الإسلام طالما كان فى إطار المبدأ الأخلاقى، أى طالما كان هدف الفن هو السمو بالإنسان وبأحاسيسه ووجدانه ومشاعره. وقد امتدح النبى ﷺ صوت أبى موسى الأشعرى- وكان صوته جميلاً- وهو يتغنى بالقرآن. وكان النبى ﷺ يختار من بين أصحابه للأذان أجملهم صوتًا. وقد سمع النبى ﷺ صوت الدف والمزمار

---

(١) انظر: الحجر: ١٦، النحل: ٦، فصلت: ١٢.

دون تحرج. وفى يوم عيد دخل أبو بكر على ابنته عائشة زوجة الرسول ولديها جاريتان تغنيان وتضربان بالدفوف فاعترض أبو بكر على ذلك، ولكن النبى رفض ما أبداه أبو بكر من احتجاج فى هذا الصدد قائلاً: «**دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد**»(١). وقد أوصى النبى نفسه السيدة عائشة أن ترسل من يغنى فى حفل زفاف قريبة لها زفت إلى رجل من الأنصار.

وهناك مرويات أخرى عديدة عن النبى ﷺ تبين أن الغناء والموسيقى ليسا من المحرمات فى الإسلام ما لم يصحبهما أمور منكرة غير أخلاقية(٢).

٤- أما الرقص فالإسلام يفرق فيه بين رقص المرأة ورقص الرجل. فالرقصات الشعبية التى يؤديها الرجال مثلاً لا ضير فيها، وقد سمح النبى ﷺ للسيدة عائشة بمشاهدة الأحباش وهم يرقصون فى يوم عيد. ورقص المرأة أمام النساء لا حرج فيه. أما رقصها أمام الرجال فذلك لا يقره الإسلام؛ لما فيه من محاذير كثيرة.

٥- أما التمثيل فإنه ليس حرامًا ما دام فى إطار المبدأ الأخلاقى، ولا ينكر أحد ما للتمثيل الهادف من دور فعّال فى معالجة الكثير من المشكلات والقضاء على العديد من السلبيات فى المجتمع. ولا حرج أيضًا أن يشتمل التمثيل على ألوان من اللهو البرىء والترويح المقبول والترفيه الذى

---

(١) متفق عليه.

(٢) راجع: الحلال والحرام فى الإسلام للدكتور القرضاوى ص٢٩١ وما بعدها- الدوحة، قطر ١٩٧٨م، والشيخ محمد الغزالى: مائة سؤال عن الإسلام جـ١ ص١٧٤ وما بعدها.

لا يخرج عن نطاق المعقول. وكذلك التصوير لا ضير فيه، بل أصبح فى حياتنا المعاصرة يمثل فى أحيان كثيرة ضرورة لا غنى عنها.

٦- أما النحت أو التماثيل المجسمة فهناك نصوص واضحة فى تحريمها، ويرجع السبب فى تحريم الإسلام لذلك بالدرجة الأولى إلى ما يخشى من توقير هذه التماثيل أو عبادتها، كما كان يفعل عباد الأصنام قديمًا. فإذا لم يكن ذلك واردًا على الإطلاق نظرًا لارتفاع درجة الوعى لدى الناس فلا ضرر منه ولا حرج فيه؛ لانعدام سبب التحريم. غير أن الإسلام ـ من باب سد الذرائع ـ لا يريد أن يفتح هذا الباب؛ لما يمكن أن يترتب عليه من محاذير فى أزمنة مستقبلية. فالإسلام يشرع لكل الأجيال ولمختلف العصور، وما يستبعد فى بيئة قد يقبل فى أخرى، وما يعتبر مستحيلاً فى عصر قد يصبح حقيقة واقعة فى عصر آخر قريب أو بعيد.



الفصل الخامس

الإسلام وقضايا المرأة

الإسلام وقضايا المرأة

أولاً: هل صحيح أن الإسلام يظلم المرأة ويهضم حقوقها؟

١ ـ عندما جاء الإسلام كانت الأوضاع التى تعيش المرأة فى ظلها أوضاعًا سيئة، فلم يكن لها حقوق تحترم أو رأى يسمع، فانتشلها الإسلام من هذه الأوضاع السيئة، وأعلى مكانتها، ورفع عنها الكثير من الظلم الذى كانت تتعرض له، وجعلها تشعر بكيانها كإنسان مثل الرجل سواء بسواء، وضمن لها حقوقها المشروعة، وأسقط عنها تهمة إغواء آدم فى الجنة بوصفها أصل الشر فى العالم، وبيّن أن الشيطان هو الذى أغوى آدم وحواء معًا، كما يقول القرآن: ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ** ﴾ [البقرة: ٣٦].

٢ ـ يقرر الإسلام أن الناس جميعًا رجالاً ونساء قد خلقوا من نفس واحدة ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ [النساء: ١]. فالرجل والمرأة متساويان تمامًا فى الاعتبار الإنسانى، وليس لأىّ منهما ميزة على الآخر فى هذا الصدد، والكرامة التى منحها الله للإنسان فى قوله: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ [الإسراء: ٧٠] هى كرامة للرجل والمرأة على السواء. وعندما يتحدث القرآن الكريم عن الإنسان أو عن بنى آدم فإنه

يقصد الرجل والمرأة معًا . أما إذا أراد أن يتحدث عن أىّ منهما وحده فإنه يستخدم مصطلح «الرجال» ومصطلح «النساء» .

٣ ـ وصف النبى ﷺ العلاقة بين الرجل والمرأة بقوله : «**النساء شقائق الرجال لهن مثل الذى عليهن بالمعروف**»(١) . والوصف بكلمة شقائق يوضح لنا المساواة والندية ، والرجال والنساء أمام الله سواء لا فرق بينهما إلا فى العمل الصالح الذى يقدمه كلّ منهما ، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم : ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل : ٩٧] . والله يستجيب لدعاء المرأة كما يستجيب لدعاء الرجل ، ولا يضيع العمل الصالح لأىّ منهما ـ كما يقول القرآن الكريم ـ : ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ**﴾ [آل عمران : ١٩٥] . والتعبير القرآنى بقوله : ﴿**بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ**﴾ يدل على أن كلاًّ منهما مكمل للآخر وأن الحياة لا يمكن أن تستقر دون مشاركتهما معًا .

٤ ـ هل بعد هذا الموقف المبدئى للإسلام من المرأة من خلال النصوص القاطعة من مصدرى الإسلام ـ القرآن والسنة ـ يستطيع إنسان منصف أن يتهم الإسلام باضطهاد المرأة وهضم حقوقها؟ إن هناك ـ فى حقيقة الأمر ـ خلطًا ظالمًا بين الإسلام كدين له تعاليمه السمحة وبين عادات وتقاليد بالية وسلوك سيئ لبعض المسلمين إزاء المرأة ، والحكم الموضوعى على

(١) رواه أبو داود فى كتاب الطهارة ج١ ص٦١ .

الإسلام ومواقفه ينبغى أن يفرق بين الأمرين . فالوضع المتدنى للمرأة فى بعض المجتمعات الإسلامية يرجع إلى الجهل المنتشر فى هذه المجتمعات وليس نتيجة لتعاليم الإسلام .

ثانيًا: هل المرأة تابعة للرجل دائمًا؟

١ ـ لقد أعطى الإسلام للمرأة استقلالها التام عن الرجل فى الناحية الاقتصادية ، فلها مطلق الحرية فى التصرف فيما تملك بالبيع والشراء والهبة والاستثمار . . . إلخ ، دون إذن من الرجل ما دامت لها أهلية التصرف . وليس لزوجها ولا لغيره من أقاربها من الرجال أن يأخذ من مالها شيئًا إلا بإذنها .

٢ ـ لا يجوز للرجل حتى ولو كان الأب أن يجبر ابنته على الزواج من رجل لا تحبه ، فالزواج لا بد أن يكون بموافقتها وبرضاها . وقد جاءت فتاة إلى النبى ﷺ تشكو من أن أباها زوَّجها من ابن أخ له ؛ ليرفع بذلك من مكانته وهى له كارهة . فاستدعى النبى الأب ، وجعل للفتاة حرية الاختيار : إما رفض هذا الزواج أو قبوله . فقررت بمحض إرادتها قبول هذا الزواج وقالت : «يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبى ، ولكنى أردت أن أعلم النساء أنه ليس للآباء من هذا الأمر شىء»(١) . أى ليس للآباء سلطة إكراه بناتهم على الزواج .

٣ ـ المرأة شريكة للرجل فى الأسرة وفى تربية الأطفال . ولا يعقل أن تستقيم حياة أسرة دون مشاركة إيجابية من الطرفين ، وإلا اختلت موازين

---

(١) رواه البخارى فى كتاب النكاح .

الأسرة وانعكس أثر ذلك سلبًا على الأطفال. وقد حمَّل النبى ﷺ كلاً من الرجل والمرأة هذه المسئولية المشتركة عندما قال: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها**»(١).

وإسناد المسئولية هنا للمرأة ينفى تمامًا تهمة تبعية المرأة الدائمة للرجل، فليست هناك مسئولية دون حرية، والحرية لا تتفق مع التبعية.

٤ - لا يجوز للرجل أن يمنع المرأة من حقوقها المشروعة فى الحياة، ولا يجوز له أن يمنعها من التردد على المسجد للعبادة.

وقد ورد عن النبى ﷺ فى ذلك قوله: «**لا تمنعوا إماء الله أن يصلين فى المسجد**»(٢)، وإذا كان بعض المسلمين استنادًا إلى تقاليد بالية وأعراف باطلة لا يلتزم بهذه المواقف الإسلامية نحو المرأة فإن ذلك يعد جهلاً بالإسلام وأحكامه أو سوء فهم لتعاليمه الواضحة.

ثالثًا: لماذا تأخذ المرأة نصيبًا أقل من الرجل فى الميراث؟

١ - لقد كانت المرأة قبل الإسلام محرومة من حقها فى الميراث، فأنصفها الإسلام وجعل لها حقًّا مقررًا فيه على الرغم من تذمر الكثيرين من العرب حينذاك ممن كانوا يعتقدون أن الرجال وحدهم هم الأحق بالميراث؛ لأنهم هم الذين يقاتلون الأعداء.

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه ابن ماجة فى المقدمة ج١ ص٨.

وقد جعل الإسلام فى بعض الحالات للذكر ضعف نصيب الأنثى فى الميراث، كما جاء ذلك فى القرآن الكريم: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]. والنظرة المتعجلة للأمور ربما تعتبر ذلك انتقاصًا من شأن المرأة، وهضمًا لحقها كإنسان له حقوق متساوية مع الرجل. والواقع أن الإسلام أبعد ما يكون عن أن يجعل من ذلك مبررًا للنظر إلى المرأة نظرة متدنية. فسبب هذه التفرقة فى الميراث لا صلة له إطلاقًا بمكانة كل من الرجل والمرأة. ولكنه يرجع إلى الالتزامات التى تقع على كاهل كلّ منهما.

٢ ـ فالإسلام يلزم الرجل بالإنفاق على زوجته وأفراد أسرته. وفى الوقت نفسه لا يلزم المرأة بأى التزامات مالية لغيرها. فإذا قمنا بعملية حسابية بسيطة سيتضح لنا أن المرأة عندما تأخذ نصف ما يأخذه الرجل من الميراث فإنها تكون فى وضع مالى أفضل من وضع الرجل؛ وذلك لأن ما يأخذه الرجل يجب عليه شرعًا أن ينفق منه على زوجته وأسرته من البنين والبنات، وعلى أمه وأبيه إذا لم يكن لهما مورد رزق، وعلى أخواته إذا لم يكن لهن عائل. ومعنى هذا أن ما يأخذه الرجل من ميراث يكون فى تناقص مستمر بسبب هذه الالتزامات الكثيرة. أما المرأة فإنها لا تسأل إلا عن نفسها. وهى حرة فى ميراثها حيث تستطيع أن تنميه فى استقلال تام عن الرجل، وليس عليها أى التزامات مالية تجاه أفراد الأسرة، وزوجها ملزم بنفقتها حتى وإن كانت ذات ثراء، وهذا يعنى أن ميراثها سيكون فى ازدياد مستمر.

ومن ذلك يتضح أنه ليس هناك ظلم للمرأة على الإطلاق، أو انتقاص من شأنها، بل لعل الميزان هنا يميل إلى صالحها.

٣ـ والأمر الذى يجب أن نشير إليه فى هذا الصدد هو أن توريث المرأة على النصف من الرجل ليس موقفًا عامّا ولا قاعدة مطردة فى توريث الإسلام لكل الذكور وكل الإناث. فالقرآن لم يقل: يوصيكم الله فى المواريث والوارثين للذكر مثل حظ الأنثيين، وإنما قال: ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ** ﴾، وهناك فرق واضح بين التعبيرين.

واستقراء حالات ومسائل الميراث يكشف لنا عن حقيقة مغايرة تمامًا لما استقر فى الأذهان بشأن ميراث المرأة وما يرتبط بذلك خطأ من الانتقاص من أهليتها. فحالات الميراث بناء على هذا الاستقراء تبيّن أن هناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف ميراث الرجل، وهناك أكثر من ثلاثين حالة ترث فيها المرأة مثل الرجل أو أكثر منه أو ترث هى ولا يرث نظيرها من الرجال فى مقابل أربع حالات محددة ترث فيها المرأة نصف الرجل(١).

ومن بين الأمثلة العديدة على ذلك أنه فى حالة ما إذا مات رجل أو امرأة وليس له أو لها والد أو ولد (ذكرًا كان أو أنثى) وله أو لها أخ أو أخت من ناحية الأم. ففى هذه الحالة يستوى الأخ والأخت فى الميراث(٢). كما أن

---

(١) راجع: حقائق الإسلام فى مواجهة شبهات المشككين ص ٥٥٦ـ٥٥٩ – نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٢م.

(٢) راجع: سيد سابق: فقه السنة ج٣ ص٦١٥ وما بعدها – بيروت ١٩٧١م.

الزوج إذا ماتت زوجته ولها بنت منه أو من غيره ترث البنت ضعف نصيب الزوج. وهكذا فى حالات أخرى، وهذه الأنصبة محددة فى القرآن الكريم وتقضى على جميع أشكال المنازعات بين أفراد الأسرة. ودار الإفتاء المصرية تشهد بأن كثيراً من الأقباط فى مصر يحتكمون إلى نظام المواريث الإسلامية لما له من أثر كبير فى حسم المنازعات والقضاء على أسباب الخلاف بين المستحقين للميراث.

رابعًا: لماذا الانتقاص من شأن المرأة فى الشهادة؟

١ ـ يذهب القائلون بهذه الشبهة إلى الزعم بأن الإسلام قد انتقص من أهلية المرأة بجعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل. وهذا زعم باطل واتهام غير صحيح. ومصدر هذه الشبهة هو الخلط بين «الشهادة» وبين «الإشهاد» الذى تتحدث عنه الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ...**﴾ (إلى قوله) ﴿**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ**﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالشهادة التى يعتمد عليها القضاء معيارها تحقق اطمئنان القاضى لصدق الشهادة بصرف النظر عن جنس الشاهد ذكراً كان أو أنثى، وبصرف النظر عن عدد الشهود: «فللقاضى إذا اطمأن ضميره إلى ظهور البينة أن يعتمد شهادة رجلين أو امرأتين، أو رجل وامرأة، أو رجل وامرأتين، أو امرأة ورجلين، أو رجل واحد، أو امرأة واحدة، ولا أثر للذكورة أو الأنوثة فى الشهادة التى يحكم القضاء بناء على ما تقدمه له البينات».

٢ ـ أما الآية المشار إليها فإنها تتحدث عن أمر آخر غير الشهادة أمام القضاء، إنها تتحدث عن «الإشهاد» الذى يقوم به صاحب الديْن للاستيثاق من الحفاظ على ديْنه، وذلك على سبيل النصح والإرشاد لصاحب الديْن، وليس تشريعًا موجهًا إلى القاضى الحاكم فى القضايا والنزاعات. وقد أكد هذا الفهم عدد من العلماء الثقات المجتهدين قديمًا وحديثًا مثل ابن تيمية وابن القيم والشيخ محمد عبده والشيخ شلتوت وغيرهم.

يقول ابن القيم: وليس فى القرآن ما يقتضى أنه لا يحكم إلا بشاهدين أو شاهد وامرأتين، فإن الله -سبحانه- إنما أمر بذلك أصحاب الحقوق أن يحفظوا حقوقهم بهذا النصاب (الذى نصت عليه الآية)، ولم يأمر بذلك الحكّام أن يحكموا به، فضلاً عن أن يكون قد أمرهم ألا يقضوا إلا بذلك.

٣ ـ وحتى فى مجال «الإشهاد» الذى تحدثت عنه الآية المشار إليها معللة شهادة امرأتين بدلاً من امرأة واحدة باحتمال أن تنسى إحداهما فتذكّرها الأخرى ﴿**أَن تَضِلَّ** (تنسى) **إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ**﴾ لا يجوز أن يفهم من ذلك أن النسيان طبع فى النساء أو أمر حتمى فى كل أنواع الشهادات التى تمارسها المرأة، وإنما هو أمر يتعلق بالخبرة والمران، أى أنه من الأمور التى يطرأ عليها التطور والتغيير.

ومن هنا فإنه عند توافر الخبرة للمرأة فى موضوع الإشهاد فإن شهادتها فى هذه الحالة تكون مساوية لشهادة الرجل. ولذلك أرجع الشيخ محمد عبده السبب فى شهادة امرأتين على الديْن إلى أنه لم يكن من شأن المرأة

الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات والأعمال التجارية، فلذلك تكون ذاكرتها ضعيفة فى هذه الأمور. وقد كان ذلك واقعًا تاريخيًا خاضعًا للتطور والتغيير، وليس طبيعة فى النساء على مر العصور.

وقد أصبحت المرأة اليوم تنافس الرجل فى تخصصات المحاسبة والاقتصاد وإدارة الأعمال، وأصبح هناك سيدات أعمال تنافسن رجال الأعمال، الأمر الذى لم يعد يستوجب ضرورة إشهاد امرأتين على الدين بدلاً من واحدة(١).

ومن ذلك يتضح أن هذه الشبهة لا محل لها أصلاً، وأن الفهم الضيق للنصوص القرآنية من شأنه أن يوقع فى أخطاء فوق أخطاء، وبالتالى يسىء إلى الإسلام وتعاليمه السمحة ومبادئه السامية.

خامسًا: ما موقف الإسلام من ولاية المرأة للمناصب العليا؟

١ ـ الإسلام لا يمنع المرأة من تولى مناصب عليا فى الدولة، فلها أن تشغل من المناصب ما يتلاءم مع طبيعتها ومع خبراتها وكفاءتها ومؤهلاتها. أما الحديث النبوى الذى اعتمد عليه الفقهاء فى عدم جواز تولى المرأة وظائف عامة وهو: «**لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة**»(٢)، فإن له مناسبة خاصة. فعندما بلغ النبى ﷺ أن أهل فارس ملّكوا عليهم بنت كسرى قال هذا الحديث. وقد استنتج منه الفقهاء أن المرأة لا تلى على

---

(١) انظر تفصيل القول فى الرد على هذه الشبهة فى كتاب: حقائق الإسلام فى مواجهة شبهات المشككين ص ٥٦٠ ـ ٥٧٤.

(٢) رواه البخارى فى المغازى والفتن.

الرجال ولاية عامة بمعنى رئاسة الدولة أو الخلافة، ولكن لا يجوز أن يغيب عن ذهننا أن القرآن الكريم قد أثنى على ملكة سبأ فى سورة النمل، وامتدح حكمتها فى معالجة الأمور. وهذا أمر له دلالة هامة تعبر عن مدى تقدير القرآن الكريم للمرأة وكفاءتها وحسن تصرفها وهى فى أعلى منصب فى الدولة.

٢ ـ لقد نظر كثيرون من علماء الإسلام فى مختلف العصور الإسلامية إلى عمل المرأة نظرة تقدمية، فقد قال الإمام ابن حزم بجواز أن تتولى المرأة الحكم، وهذا هو أيضًا رأى الإمام أبى حنيفة صاحب المذهب الفقهى المشهور. أما الإمام ابن جرير الطبرى فقد أجاز أن تتولى المرأة القضاء فى كل شىء يجوز للرجل أن يقضى فيه دون استثناء. وقد روى أن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب قد ولى الشفاء بنت عبد الله المخزومية قضاء الحسبة على سوق المدينة، وهى وظيفة دينية مدنية تتطلب الخبرة والصرامة(١).

٣ ـ وإذا كان الإسلام لا يحرم المرأة من حقها فى تولى مناصب عليا فى الدولة ما دامت أهلاً لذلك فإنه ينبغى ألا يطغى نشاط المرأة خارج البيت على قيامها بمسئوليتها الأساسية نحو أسرتها من أطفال وزوج. فالأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع، فإذا انهارت كان ذلك إيذانا بانهيار المجتمع من أساسه. والمطلوب إذن هو المواءمة بين عمل المرأة خارج البيت ومسئوليتها فى البيت من أجل مصلحة المجتمع كله.

(١) راجع: د. يوسف القرضاوى: فتاوى معاصرة - الحلقة الأولى - ص٦٣ دار آفاق الغد ١٩٧٨م، وراجع أيضًا: محمد الغزالى: مائة سؤال عن الإسلام ج٢ ص٢٦٠، ٢٦٢، ٢٧٦.

سادسًا: ما موقف الإسلام من حجاب المرأة وحقها فى التعليم والعمل؟

١ ـ الحجاب الذى يفرضه الإسلام على المرأة لا يطلب منها غير الاحتشام فى ملابسها ومظهرها حتى لا تتعرض للمضايقات من جانب الرجل. فالحجاب هنا صيانة للمرأة وحماية لها وليس قيدًا عليها من شأنه أن يشل حركتها. ولا يعنى الحجاب إخفاء الوجه أو إخفاء اليدين فى قفاز فهذا ليس من تعاليم الإسلام، وإنما يرجع إلى عادات وتقاليد فى بعض المجتمعات ليس الإسلام مسئولاً عنها.

والحجاب كما هو من الفضائل فى الإسلام هو كذلك ولا يزال من الفضائل فى الديانة المسيحية. والدليل على ذلك ما ترتديه الراهبات المسيحيات من ملابس تغطى كل جسم المرأة وشعرها، ولا يظهر منها غير الوجه والكفين. والإنجيل يطلب من المرأة أن تغطى شعرها فى الصلاة[١]. وعندما يستقبل بابا الڤاتيكان سيدة سواء كانت زوجة لرئيس دولة غربية أو نجمة مشهورة نجدها تغطى شعرها.

٢ ـ والإسلام لا يمنع المرأة من حقها فى التعليم، بل العكس هو الصحيح، وهو أنه يجعل طلب العلم فريضة وأمرًا واجبًا على الرجل والمرأة على السواء. كما جاء ذلك فى حديث النبى ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[٢]. وتاريخ المسلمين يعرف أسماء الكثيرات من النساء اللاتى نبغن فى علوم الدين وفنون الشعر والأدب. وعندما تزوج النبى ﷺ السيدة حفصة ـ وكانت قد تعلمت مبادئ القراءة والكتابة ـ

(١) راجع الإصحاح الحادى عشر من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنتوس.
(٢) رواه ابن ماجة فى المقدمة.

استقدم لها الشفاء العدوية لتعلمها تحسين الخط وتزيينه استكمالاً لتعليمها القرءاة والكتابة. وكانت السيدة عائشة زوجة الرسول أفقه فى أمور الدين وأعلم من كثير من الصحابة. وقد أوصى الرسول نفسه بالأخذ عنها فى أمور الدين.

٣ ـ والإسلام لا يمنع المرأة أيضًا من العمل، فمن حقها أن تعمل طالما كانت فى حاجة إلى العمل، ولها أن تختار العمل المناسب لقدراتها وكفاءتها ومؤهلاتها. ولا توجد نصوص دينية تمنع المرأة من حقها فى التعليم أو العمل. وقد كانت المرأة حتى فى عهد الرسول تقوم بالكثير من الأعمال والمهام المختلفة، سواء فى مساعدة الجيوش أو مداواة الجرحى أو غير ذلك من أعمال اقتضتها طبيعة المرحلة آنذاك.

٤ ـ ينبغى التفريق بين تعاليم الإسلام الواضحة فى صيانة وحماية المرأة وبعض التقاليد البالية والعادات السيئة التى تعوق تقدم المرأة وتقف حائلاً بينها وبين حقها فى التعليم والعمل فى بعض المجتمعات الإسلامية، فهذه ليست من الإسلام فى شيء. إن الإسلام الذى كرم المرأة يهمه أن تنمى المرأة شخصيتها، فذلك من شأنه أن يجعلها أقدر على تربية أولادها وبناتها، والإسهام بذلك فى بناء جيل قوى يعمل على تطوير مجتمعه وتقدمه وازدهاره.

سابعًا: هل الحجاب لا يتناسب مع الحياة العصرية؟

١ ـ كل أمة من الأمم لها طابعها الخاص، ولها تقاليدها المرعية فى الأكل والشرب والملبس والمسكن. . . . إلخ، وكل ذلك يعبر عن ثقافة الأمة

وحضارتها وعقائدها، وقد خلق الله الناس مختلفين فى كثير من الأمور، وسيظل هذا الاختلاف إلى نهاية الدنيا وما يصلح لأمة قد لا يصلح لأمة أخرى. فالمرأة الهندية مثلاً لها زى خاص بها (السارى) ولا يعيب عليها أحد ذلك حتى فى البلاد الغربية رغم أنه زى قد يكون غير عملى، ولكن تلبسه المرأة العادية فى الهند كما كانت ترتديه رئيسة الوزراء الهندية أنديرا غاندى، ولم يقل أحد إن هذا الزى يعوق المرأة الهندية عن العمل والإنتاج.

٢ ـ المرأة الأوروپية كانت حتى بدايات القرن العشرين ـ فى الأعم الأغلب ـ تغطى شعرها وتلبس الملابس الطويلة. ولم يعب عليها أحد ذلك. ولكنها بدأت تطور من زيها إلى أن وصل الأمر الآن إلى الوضع الحالى هناك الذى لم يعد يلتزم بأى قواعد أو معايير، وربما يتغير ذلك بعد فترة بناء على ما تقرره بيوت الأزياء هناك.

٣ ـ أما المرأة المسلمة فإن الإسلام لا يطلب منها فى ملبسها مواصفات معينة أكثر من الاحتشام فى مظهرها حتى لا تكون مثارًا للإغراء وعرضة للمضايقات من جانب الرجل، وليس صحيحًا أن هذا الزى الإسلامى يعوق المرأة عن العمل والإنتاج. ففى كل مؤسسات الدولة نجد كثيرات من النساء فى أعمار مختلفة يلتزمن بالزى الإسلامى ويمارسن أعمالهن بطريقة عادية مثل زميلاتهن من غير المحجبات. فهذه التهمة قائمة على غير أساس معقول، ولم يقم أحد بإجراء دراسة علمية تثبت هذا الزعم.

إن كل ما فى الأمر أن الغربيين يودون أن يروا قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم تحظى بالسيادة فى كل مكان . وهذا ضد طبيعة الأشياء . فكل أمة لها شخصيتها المتميزة، ومن حق المرأة المسلمة أن تكون لها شخصيتها وسماتها المميزة فى الملبس والسلوك، كما للمرأة الهندية والأوروبية هذا الحق أيضًا .

٤ ـ هناك نساء مسلمات فى عصرنا الحاضر يتقلدن أعلى المناصب ويقمن بعملهن خير قيام رغم ارتدائهن للزى الإسلامى، فالسيدة بنظير بوتو ـ التى كانت ترأس حكومة دولة من أكبر الدول الإسلامية ـ ترتدى زيّا قريبًا جدًّا من الزى الإسلامى وتؤدى دورها على خير وجه، ولا يعوقها ذلك عن أداء واجباتها، وكذلك الشأن بالنسبة لرئيسة حكومة بنجلاديش التى ترتدى زيّا مشابهًا .

ثامنًا: لماذا أباح الإسلام تعدد الزوجات؟

١ ـ لم يكن الإسلام أول دين يبيح تعدد الزوجات، ولم يبتكر هذا النظام، بل كان أول دين ينظم شئون الزواج ويحدد تعدد الزوجات بقيود شديدة وشروط قاسية . وعندما جاء الإسلام كان تعدد الزوجات مباحًا بلا حدود . ليس فقط لدى العرب، بل لدى شتى الأمم بشكل أو بآخر . والإسلام فى تشريعاته الجديدة كان يتبع أسلوب التدرج فى القضاء على العادات السيئة السائدة فى المجتمع، فمن الصعب القضاء على عادات وتقاليد متأصلة منذ عصور سحيقة دفعة واحدة، ومن هنا وجدنا هذا التدرج أيضًا فى قضية تعدد الزوجات .

٢ ـ حدد الإسلام عدد الزوجات الذى كان مطلقًا بلا حدود بأربع زوجات، كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ** ﴾ [النساء: ٣]، ولكن هذا التحديد بأربع فقط لم يكن مطلقًا، بل كان مشروطًا بشرط أساسى وهو ضرورة العدل بين الزوجات. وهذا يعنى عدم التفريق فى المعاملة بينهن فى كل الأمور، وقد حذر النبى ﷺ من عدم الالتزام بهذا الشرط فقال: «**من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط**»(١).

٣ ـ نبه القرآن الكريم إلى أن العدل بين الزوجات من الأمور التى يصعب تحقيقها، وأن الإنسان مهما حاول فلن يستطيع أن يقيم موازين العدل كاملة بين الزوجات. ويصرح القرآن بذلك فى قوله: ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ [النساء: ١٢٩].

وإذا كان الأمر كذلك وهو أن العدل متعذر بين الزوجات فإن على الرجل فى هذه الحالة أن يكتفى بزوجة واحدة، وقد ورد ذلك فى صراحة ووضوح فى القرآن الكريم: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾ [النساء: ٣]. وقد جاء هذا التشريع الإسلامى منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان.

٤ ـ من ذلك يتبين أن الإسلام لم يفرض الزواج بأربع، ولم يخترع التعدد، فقد كان هذا واقعًا قائمًا أراد الإسلام أن يعالجه بحكمة ودون إحداث هزة عنيفة فى المجتمع. وهذا يوضح لنا أن الأصل فى الإسلام هو

---

(١) رواه ابن ماجة فى كتاب النكاح ج١ ص٦٣٣.

الزواج بواحدة، وأن التعدد هو الاستثناء، وإن كان الإسلام قد أبقى على هذا الاستثناء لمبررات معقولة ولمعالجة حالات خاصة. ومن ذلك على سبيل المثال في أوقات الحروب حيث يموت الكثيرون من الرجال في ميادين القتال، وتظل الكثيرات من النساء بلا عائل. فتلك حالة استثنائية لجواز التعدد حماية للنساء من الانحراف.

كما أنه قد تمرض المرأة مرضًا مزمنًا تعجز فيه عن القيام بواجباتها الزوجية، أو تكون غير قادرة على الإنجاب، فحماية للزوج من الانحراف يباح له الزواج بامرأة أخرى تتساوى مع الزوجة الأولى في جميع الحقوق. وإذا كان الإسلام قد أبقى على هذا الاستثناء فإنه بذلك يقضى أيضًا على خطر التعدد غير المشروع وما يترتب عليه من آثار، وهو التعدد الذى لا يعترض عليه العالم الغربى.

تاسعًا: هل تحريم زواج المسلمة بغير مسلم يعد نزعة عنصرية؟

١ ـ صحيح أن الإسلام يجيز زواج المسلم من غير المسلمة (مسيحية أو يهودية) ولا يجيز زواج المسلمة من غير المسلم. وللوهلة الأولى يعد ذلك من قبيل عدم المساواة، ولكن إذا عرف السبب الحقيقى لذلك انتفى العجب، وزال وهم انعدام المساواة. فهناك وجهة نظر إسلامية فى هذا الصدد توضح الحكمة فى ذلك، وكل تشريعات الإسلام مبنية على حكمة معينة ومصلحة حقيقية لكل الأطراف.

٢ ـ الزواج فى الإسلام يقوم على «المودة والرحمة» والسكن النفسى. ويحرص الإسلام على أن تبنى الأسرة على أسس سليمة تضمن الاستمرار

للعلاقة الزوجية، والإسلام دين يحترم كل الأديان السماوية السابقة ويجعل الإيمان بالأنبياء السابقين جميعًا جزءًا لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية. وإذا تزوج مسلم من مسيحية أو يهودية فإن المسلم مأمور باحترام عقيدتها، ولا يجوز له ـ من وجهة النظر الإسلامية ـ أن يمنعها من ممارسة شعائر دينها والذهاب من أجل ذلك إلى الكنيسة أو المعبد. وهكذا يحرص الإسلام على توفير عنصر الاحترام من جانب الزوج لعقيدة زوجته وعبادتها، وفى ذلك ضمان وحماية للأسرة من الانهيار.

٣ ـ أما إذا تزوج غير مسلم من مسلمة فإن عنصر الاحترام لعقيدة الزوجة يكون مفقودًا، فالمسلم يؤمن بالأديان السابقة، وبأنبياء الله السابقين، ويحترمهم ويوقرهم، ولكن غير المسلم لا يؤمن بنبى الإسلام ولا يعترف به، بل يعتبره نبيّا زائفًا، ويُصدِّق ـ فى العادة ـ كل ما يشاع ضد الإسلام وضد نبى الإسلام من افتراءات وأكاذيب، وما أكثر ما يشاع.

وحتى إذا لم يصرح الزوج غير المسلم بذلك أمام زوجته فإنها ستظل تعيش تحت وطأة شعور عدم الاحترام من جانب زوجها لعقيدتها، وهذا أمر لا تجدى فيه كلمات الترضية والمجاملة. فالقضية قضية مبدأ، وعنصر الاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة أساس لاستمرار العلاقة الزوجية.

٤ ـ وقد كان الإسلام منطقيّا مع نفسه حين حرّم زواج المسلم من غير المسلمة التى تدين بدين غير المسيحية واليهودية، وذلك لنفس السبب الذى من أجله حرم زواج المسلمة بغير المسلم.

فالمسلم لا يؤمن إلا بالأديان السماوية وما عداها تعد أديانًا بشرية . فعنصر التوقير والاحترام لعقيدة الزوجة فى هذه الحالة ـ بعيداً عن المجاملات ـ يكون مفقوداً، وهذا يؤثر سلبًا على العلاقة الزوجية، ولا يحقق «المودة والرحمة» المطلوبة فى العلاقة الزوجية .

***

الفصل السادس

قضايا حرية الاعتقاد
ووحدة الأمة والتخلف

قضايا حرية الاعتقاد
ووحدة الأمة والتخلف

أولاً: هل صحيح أن الإسلام ضد حرية الاعتقاد؟

١ ـ لقد كفل الإسلام للإنسان حرية الاعتقاد، وجاء ذلك فى وضوح تام فى القرآن الكريم: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فلا يجوز إرغام أحد على ترك دينه واعتناق دين آخر، فحرية الإنسان فى اختيار دينه هى أساس الاعتقاد. ومن هنا كان تأكيد القرآن على ذلك تأكيداً لا يقبل التأويل فى قوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٢ ـ إقرار الحرية الدينية يعنى الاعتراف بالتعددية الدينية، وقد أكد ذلك النبى ﷺ فى أول دستور للمدينة حينما اعترف لليهود بأنهم يشكلون مع المسلمين أمة واحدة.

ومن منطلق الحرية الدينية التى يضمنها الإسلام كان إعطاء الخليفة الثانى عمر بن الخطاب للمسيحيين من سكان القدس الأمان «على حياتهم وكنائسهم وصلبانهم، لا يضار أحد منهم ولا يرغم بسبب دينه».

٣ ـ لقد كفل الإسلام أيضًا حرية المناقشات الدينية على أساس موضوعى بعيد عن المهاترات أو السخرية من الآخرين، وفى ذلك يقول

القرآن: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل: ١٢٥]. وعلى أساس هذه المبادئ السمحة ينبغى أن يكون الحوار بين المسلمين وغير المسلمين، وقد وجه القرآن هذه الدعوة إلى الحوار إلى أهل الكتاب فقال: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤]. ومعنى هذا أن الحوار إذا لم يصل إلى نتيجة فلكلٍّ دينه الذى يقتنع به. وهذا ما عبّرت عنه أيضًا الآية الأخيرة من سورة (الكافرون) التى ختمت بقوله -تعالى- للمشركين على لسان محمد ﷺ: ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [الكافرون: ٦].

٤ ـ الاقتناع هو أساس الاعتقاد: فالعقيدة الحقيقية هى التى تقوم على الإقناع واليقين، وليس على مجرد التقليد أو الإرغام. وكل فرد حر فى أن يعتقد ما يشاء وأن يتبنى لنفسه من الأفكار ما يريد، حتى ولو كان ما يعتقده أفكارًا إلحادية، فلا يستطيع أحد أن يمنعه من ذلك طالما أنه يحتفظ بهذه الأفكار لنفسه ولا يؤذى بها أحدًا من الناس. أما إذا حاول نشر هذه الأفكار التى تتناقض مع معتقدات الناس، وتتعارض مع قيمهم التى يدينون لها بالولاء، فإنه بذلك يكون قد اعتدى على النظام العام للدولة بإثارة الفتنة والشكوك فى نفوس الناس، وأى إنسان يعتدى على النظام العام للدولة فى أى أمة من الأمم يتعرض للعقاب، وقد يصل الأمر فى ذلك إلى حد تهمة الخيانة العظمى التى تعاقب عليها معظم الدول بالقتل. فقتل المرتد فى الشريعة الإسلامية ليس لأنه ارتد فقط، ولكن لإثارته الفتنة

والبلبلة وتعكير النظام العام فى الدولة الإسلامية . أما إذا ارتد بينه وبين نفسه دون أن ينشر ذلك بين الناس ويثير الشكوك فى نفوسهم فلا يستطيع أحد أن يتعرض له بسوء، فالله وحده هوالمطلع على ما تخفى الصدور.

وقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن عقاب المرتد ليس فى الدنيا وإنما فى الآخرة، وأن ما حدث من قتل للمرتدين فى الإسلام بناء على بعض الأحاديث النبوية فإنه لم يكن بسبب الارتداد وحده، وإنما بسبب محاربة هؤلاء المرتدين للإسلام والمسلمين(١) . وهذه وجهة نظر معقولة وجديرة بالاعتبار.

ثانيًا: هل موقف المسلمين من سلمان رشدى ضد حرية التعبير؟

١ ـ حرية التفكير والتعبير مكفولة فى الإسلام بلا حدود، فالكون كله بسمائه وأرضه وما بينهما مجال لذلك بنص القرآن: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية: ١٣]. وقد عاب القرآن على الذين يعطلون قواهم العقلية والحسية عن أداء وظيفتها، وجعلهم فى مرتبة أحط من مرتبة الحيوانات. والقرآن الكريم يشتمل على عشرات الآيات التى تحض على العلم، وتعلى من شأن العقل، وتجعل من عمارة الأرض تكليفًا إلهيًا للإنسان(٢)، ومن

---

(١) راجع: الحرية الدينية فى الإسلام للشيخ عبد المتعال الصعيدى ص ٣، ٧٢، ٧٣، ٨٨ ـ دار الفكر العربى ـ الطبعة الثانية (دون تاريخ) وقد نشرت دار المعارف هذا الكتاب فى طبعة جديدة فى السنوات الأخيرة.

(٢) هود: ٦١.

التفكير واجبًا دينيّا[1] . فالبحث العلمى مطلوب، وحرية التعبير مصانة طالما كان ذلك من أجل خير الإنسان. وهذا هو الموقف المبدئى للإسلام فى قضية حرية البحث وحرية التفكير والتعبير.

٢ ـ من المعلوم أن لكل أمة مقدسات تعتز بها، ومعتقدات تسرى فى كيانها، وقيمًا تحرص عليها. وذلك كله له تأثيره القوى فى تكوين شخصية الأمة، وصياغة ثقافتها. والاعتداء على هذه المقدسات بالقول أو بالفعل أو بالسخرية منها يعد اعتداء على ذاتية الأمة، ويعد اعتداء على النظام العام فيها، ومن حق كل أمة أن تحمى مقدساتها، وأن تصون نظامها العام من العبث به بأى شكل من الأشكال. وهذا يوضح لنا موقف المسلمين من سلمان رشدى، فقد شعروا بأنه اعتدى على مقدساتهم التى يعتزون بها، وامتهن حرمة نبيهم، فكان اعتراضهم على ذلك. وهو موقف له ما يبرره.

٣ ـ وهكذا يتضح لنا أن الأمر فى قضية سلمان رشدى لا صلة له بحرية التعبير، بل يدور حول حرية التشهير والإهانة إذا أردنا أن نسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية، وهذا ما لا ترضاه أمة على نفسها. ونحن المسلمين نغضب بنفس القدر إذا وجهت إهانة لموسى أو عيسى –عليهما السلام– أو لأى نبى من أنبياء الله، ولكن هذا لا يعنى الموافقة على قتل سلمان رشدى أو حتى محاكمته؛ لأنه لا يعيش على أرض إسلامية حتى يمكن محاكمته.

٤ – لقد ساعد الإعلام الغربى ولا يزال فى قضية سلمان رشدى على الخلط بين حرية التعبير وحرية التشهير والإهانة، وينبغى التفريق بينهما.

---

(١) يراجع كتاب: التفكير فريضة إسلامية للأستاذ عباس محمود العقاد.

فاختيار سلمان رشدى لدائرة المقدسات الإسلامية بالذات للتشهير بها يعد إفلاسًا فكريًا وأدبيًا من جانبه، ويعد من ناحية أخرى محاولة متعمدة للسخرية من المقدسات الإسلامية. فالأديب المبدع أمامه أفق فسيح للإبداع، أما الأديب المفلس فإنه يختار موضوعًا من الموضوعات الشائكة، وبخاصة إذا كانت تتصل بمعتقدات الناس ليدخل من خلالها إلى دائرة الشهرة، وقد تم لسلمان رشدى بذلك ما أراد.

وقد كان الأولى بالمسلمين أن يتجاهلوه تمامًا. فلم يكن هو أول من هاجم المقدسات الإسلامية ولن يكون آخرهم، ولن يكون لكتاباته ولا لكتابات غيره أى تأثير على هذا الدين الذى صمد طوال أربعة عشر قرنًا من الزمان ولا يزال ضد كل التيارات التى أرادت النيل منه.

ثالثًا: هل صحيح أن الحدود فى الإسلام تتسم بالقسوة والوحشية؟

١ ـ الإسلام ليس دينًا يرغب فى القسوة ويشتهى العنف، بل العكس هو الصحيح، وهو أنه دين يدعو إلى الرحمة والتراحم والسماحة، ولكنه فى الوقت نفسه يحرص على استتباب الأمن وإقرار السلم فى المجتمع ضمانًا لحرية الأفراد، وصونًا لحقوقهم فى أمن وأمان، وحماية لأنفسهم وعقائدهم وعقولهم وأموالهم وأسرهم. والإسلام حين يضع عقوبة لخطيئة ما يضع فى اعتباره عنصرين أساسيين:

أ ـ الإنسان ليس معصومًا من الخطأ، بل هو معرض له فى أى وقت، ومن هنا فتح الإسلام باب التوبة أمام المخطئين الذين يندمون على ما فعلوا ويريدون أن يطهروا نفوسهم.

ب ـ كل فرد فى المجتمع يهمه أن يعيش حياته آمنًا مطمئنًا على نفسه وأسرته وممتلكاته. ولا يجوز أن تتحول انحرافات بعض الأفراد إلى ظاهرة هدامة تعصف بأمن المجتمع وتروع الآمنين.

٢ ـ وإذا كان الإسلام قد وضع الحدود لمعاقبة المجرمين فإنه دعا إلى درئها بالشبهات، وإلى وقفها بالتوبة إذا رأى القاضى أن من تورط فيها قد ندم على فعله وأنه تاب توبة نصوحًا. وفى ذلك يقول النبى ﷺ: «**ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجًا فخلوا عن سبيله، فإن الإمام لأن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة**»[(١)]. وهذا الحديث يدل على منتهى التسامح.

٣ ـ إن عقوبة الزنا من الأمور التى يصعب تنفيذها نظرًا لأن الإسلام قد اشترط لثبوت جريمة الزنا أن يشهد على ذلك أربعة شهود يقررون أنهم رأوا وقوعها على نحو صريح لا شبهة فيه، وهذا أمر يكاد أن يكون فى عداد المستحيلات. ومن هنا فإن حادثتى الرجم اللتين وقعتا فى تاريخ الإسلام كانتا بناء على اعتراف، وليس بشهادة الشهود. وقد حاول النبى ﷺ مرارًا وعلى فترات مختلفة أن يثنى كلاًّ من الجانيين عن هذا الاعتراف، ولكنهما أصرا على ذلك إصرارًا لم يجد معه النبى مفرًّا من تنفيذ العقوبة التى لم تتكرر فى التاريخ الإسلامى لصعوبة إثبات الجريمة، ومن الواضح أن النبى أمر بتنفيذ العقوبة وهو كاره لهذا التنفيذ.

---

(١) رواه الترمذى والحاكم فى مستدركه وغيرهما. (راجع: فيض القدير للمناوى ج١ ص ٢٢٦ وما بعدها - بيروت ١٩٧٢م).

٤ ـ الإسلام لا يقطع يد سارق جائع سرق من أجل إطعام نفسه وإطعام أولاده، ولكنه يعاقب السارق المتبجح الذى يسرق لا لحاجته ولكن لسرقة كسب الآخرين وكدحهم، وإشاعة الفساد فى المجتمع. ومثل هذا الجانى لا يستحق شفقة من أحد؛ لأنه هو نفسه لم يشفق أو يرحم من سرق منه، وقد يكون المسروق منه فى أشد الحاجة إلى المال الذى سرق منه، فمن حق المجتمع أن يدافع عن حقوقه. وفضلاً عن ذلك فإن تطبيق هذه العقوبة فى المجتمع الإسلامى ـ حينما كانت مطبقة ـ كانت نتيجته ندرة حدوث السرقة فى المجتمع لدرجة أن التاجر كان يترك بضاعته بلا حراسة، وكانت أبواب المنازل تترك دون إحكام إغلاقها، وعلى الرغم من ذلك لم تكن تحدث السرقات، وهذا على خلاف ما هو حادث فى شتى المجتمعات التى تكتفى بعقوبة مخففة، إذ يشجع ذلك على انتشار السرقات وتكرارها بدرجة أصبحت تشكل فى بعض المجتمعات ظاهرة خطيرة[١].

٥ ـ شرط تطبيق عقوبة السرقة هو توفير العدل الاجتماعى، والقضاء على شبح الفقر فى المجتمع، الأمر الذى لا يشعر فيه مواطن بدافع يدفعه إلى السرقة، ومن هنا أوقف الخليفة عمر بن الخطاب تنفيذ حد السرقة عام المجاعة التى شهدتها بلاد المسلمين حينذاك. وعندما كانت الحدود مطبقة على نحو عادل فى الإسلام فى عهده الأول كان السائر من مكة إلى الشام لا يخاف فى طريقه إلا الله والذئب على غنمه. فكل سارق كان يعلم سلفاً ما هى العقوبة، ومن أجل ذلك كان يفكر ألف مرة قبل ارتكاب جريمة السرقة

---

(١) راجع: مائة سؤال عن الإسلام للشيخ محمد الغزالى ج٢ ص ٤١ وما بعدها.

أو غيرها من الجرائم . ومن هنا كانت ندرة تطبيق الحدود . فأيهما أفضل؟ استتباب للأمن فى المجتمع ، وإن أدى ذلك إلى تطبيق العقوبة على بضعة أفراد أو امتلاء السجون بالمجرمين وتعكير صفو الأمن فى المجتمع؟

من الذى يستحق التعاطف معه : المجرم أم المجتمع وأمنه واستقراره؟

رابعًا: ما أسباب تفرق المسلمين رغم دعوة الإسلام للوحدة؟

١ ـ لا ينكر أحد أن الشعوب الإسلامية فى عصرنا الحاضر متفرقة ومتنازعة فيما بينها ، فهذا واقع ملموس لا يحتاج إلى برهان . ولكن هذا يعد مرحلة فى تاريخ المسلمين شأنهم فى ذلك شأن بقية الشعوب والأمم الأخرى ، ولا يعنى ذلك أنهم سيظلون كذلك إلى الأبد . وكما استطاعت الشعوب الأوروپية أن تتغلب على عوامل الفرقة والتنازع فيما بينها ـ والتى أدت إلى حربين عالميتين شهدهما القرن العشرون ـ فإن الشعوب الإسلامية سوف تستطيع فى مستقبل الأيام أن تتغلب أيضًا على عوامل الفرقة فيما بينها ، والبحث عن صيغة ملائمة للتعاون المثمر من أجل مصلحة المجتمعات الإسلامية كلها .

وهناك محاولات مستمرة فى هذا الصدد وإن كانت بطيئة وذات تأثير محدود ومتواضع مثل منظمة المؤتمر الإسلامى التى تضم كل الدول الإسلامية ، إلا أنه يمكن تطوير العمل فى هذه المنظمة وغيرها من منظمات إسلامية أخرى للوصول بها إلى مرحلة متقدمة من التعاون الأوثق . وللأمة الإسلامية فى تعاليم الإسلام فى الوحدة والتعاون والتآلف والتكافل أعظم سند يضمن لها نجاح هذه المحاولات فى مستقبل الأيام .

٢ ـ فالإسلام فى مصادره الأصلية يدعو إلى الوحدة والتضامن ويحذر من الفرقة والتنازع ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، [الأنفال: ٤٦]، ويدعو إلى الشعور بآلام الآخرين والمشاركة فى تخفيفها، ويجعل الأمة كلها مثل الجسد الواحد ـ كما يقول النبى ﷺ ـ «**إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**»[1]. ويعتبر الإسلام رابطة العقيدة بمنزلة رابطة الأخوة: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات: ١٠]. وحينما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، فأصبحوا إخوة متحابين متضامنين فى البأساء والضراء. وآيات القرآن وأحاديث النبى ﷺ فى ذلك أكثر من أن تحصى.

٣ ـ هناك أسباب خارجية كثيرة أدت إلى الانقسام والفرقة بين المسلمين فى العصر الحديث، وترجع هذه الأسباب فى قدر كبير منها إلى الفترة التى هيمن فيها الاستعمار على بلاد العالم الإسلامى. وعندما رحل ترك مشكلات عديدة كان هو سببًا فيها مثل مشكلات الحدود، وكانت القاعدة التى على أساسها خطط لسياساته هى مبدأ: «فَرِّق تَسُد». ومن هنا عمل على إحياء العصبيات العرقية بين شعوب البلاد المستعمَرة. وقام بنهب خيرات هذه البلاد، وأدى ذلك إلى إفقارها وتخلفها الحضارى الذى لا تزال آثاره باقية حتى اليوم، ولا تزال معظم شعوب العالم الإسلامى تعانى من المشكلات التى خلفها الاستعمار.

---

(١) رواه الإمام مسلم وغيره (راجع: فيض القدير ج٥ ص ٥١٤ وما بعدها).

٤ - انشغل المسلمون بالمشكلات الكثيرة التى خلفها الاستعمار، وغفلوا عن تعاليم الإسلام فى الوحدة والتضامن.

ولكن الشعوب الإسلامية لا تزال تحن إلى وحدة جهودها، وتضامنها فيما بينها، وتجميع قواها فى سبيل الخير لهذه الشعوب جميعها. ولا يزال المسلم فى أى بلد إسلامى يشعر بآلام المسلمين فى مناطق العالم المختلفة بوصفه جزءًا من الأمة الإسلامية، وهذا من شأنه أن يعمل على توفير أساس راسخ لمحاولات إعادة التضامن والوحدة بين أقطار العالم الإسلامى، بمعنى توحيد الجهود والتكامل فيما بينها فى ميادين الثقافة والاقتصاد والسياسة والأمن، وتبادل الخبرات والمنافع، وكل ما يعود على المسلمين بالخير، مما يجعلهم أقدر على القيام بدور فعّال فى ترسيخ قواعد السلام والأمن فى العالم كله.

خامسًا: هل الإسلام مسئول عن تخلف المسلمين؟

١ـ حقائق التاريخ تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام قد استطاع بعد فترة زمنية قصيرة من ظهوره أن يقيم حضارة رائعة كانت من أطول الحضارات عمرًا فى التاريخ، ولا تزال الشواهد على ذلك ماثلة للعيان فيما خلفه المسلمون من علم غزير فى شتى مجالات العلوم والفنون، وتضم مكتبات العالم آلافًا مؤلفة من المخطوطات العربية الإسلامية تبرهن على مدى ما وصل إليه المسلمون من حضارة عريقة، يضاف إلى ذلك الآثار الإسلامية المنتشرة فى كل العالم الإسلامى والتى تشهد على عظمة ما وصلت إليه الفنون الإسلامية.

وحضارة المسلمين فى الأندلس وما تبقى من معالمها حتى يومنا هذا شاهد على ذلك فى أوروپا نفسها . وقد قامت أوروپا بحركة ترجمة نشطة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لعلوم المسلمين . وكان ذلك هو الأساس الذى بنت عليه أوروپا حضارتها الحديثة .

٢ ـ يشتمل القرآن الكريم على تقدير كبير للعلم والعلماء وحث على النظر فى الكون ودراسته وعمارة الأرض . والآيات الخمس الأولى التى نزلت من الوحى الإلهى تنبه إلى أهمية العلم والقراءة والتأمل[١] ، وهذا أمر كانت له دلالة هامة انتبه إليها المسلمون منذ البداية . وهكذا فإن انفتاح الإسلام على التطور الحضارى بمفهومه الشامل للناحيتين المادية والمعنوية لا يحتاج إلى دليل .

٣ ـ أما تخلف المسلمين اليوم فإن الإسلام لا يتحمل وزره ؛ لأن الإسلام ضد كل أشكال التخلف . وعندما تخلف المسلمون عن إدراك المعانى الحقيقية للإسلام تخلفوا فى ميدان الحياة . ويعبر مالك بن نبى ـ المفكر الجزائرى الراحل ـ عن ذلك تعبيراً صادقًا حين يقول : «إن التخلف الذى يعانى منه المسلمون اليوم ليس سببه الإسلام ، وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به ، كما يظن بعض الجاهلين» . فليس هناك صلة بين الإسلام وتخلف المسلمين .

٤ ـ لا يزال الإسلام وسيظل منفتحًا على كل تطور حضارى يشتمل على خير الإنسان ، وعندما يفتش المسلمون عن الأسباب الحقيقية لتخلفهم

---

(١) العلق : ١ – ٥ .

فلن يجدوا الإسلام من بين هذه الأسباب، فهناك أسباب خارجية ترجع فى جانب كبير منها إلى مخلفات عهود الاستعمار التى أعاقت البلاد الإسلامية عن الحركة الإيجابية، وهذا بدوره - بالإضافة إلى بعض الأسباب الداخلية - أدى أيضًا إلى نسيان المسلمين للعناصر الإيجابية والقيم الدافعة لحركة الحياة فى الإسلام.

٥ - لا يجوز الخلط بين الإسلام والواقع المتدنى للعالم الإسلامى المعاصر. فالتخلف الذى يعانى منه المسلمون اليوم يعد مرحلة فى تاريخهم، ولا يعنى ذلك بأى حال من الأحوال أنهم سيظلون كذلك إلى نهاية التاريخ. ولا يجوز اتهام الإسلام بأنه وراء هذا التخلف، كما لا يجوز اتهام المسيحية بأنها وراء تخلف دول أمريكا اللاتينية.

إن الأمانة العلمية تقتضى أن يكون الحكم على موقف الإسلام من الحضارة مبنيًّا على دراسة موضوعية منصفة لأصول الإسلام، وليس على أساس إشاعات واتهامات وأحكام مسبقة لا صلة لها بالحقيقة.

***

الفصل السابع

تساؤلات حول
بعض تعاليم الإسلام

تساؤلات حول بعض تعاليم الإسلام

أولاً: هل صحيح أن الصوم يقلل حركة الإنتاج؟

١ ـ الصوم من العبادات التى لم ينفرد بها الإسلام، فقد أخبر القرآن الكريم أن الصوم كان مفروضًا أيضًا على الأمم السابقة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ولا تزال هناك ديانات أخرى حتى يومنا هذا تعرف شعيرة الصوم، ولكنْ هناك فرقٌ واضحٌ بين الصوم فى الإسلام والصوم فى غيره من الديانات. ويتمثل هذا الفرق فى أن الصوم فى الإسلام يأتى فى شهر معين من العام طبقًا للتقويم الهجرى، ويبدأ صيام كل يوم بالامتناع التام عن الطعام والشراب وعن كل الشهوات من طلوع الفجر حتى غروب الشمس. وهذا يعنى أن المسلم يقضى نهار يومه كله ـ وهو وقت العمل المعتاد ـ وهو صائم على النحو المشار إليه. ولعل هذا هو السبب الذى من أجله يتوهم البعض أن الصوم الإسلامى بهذه الطريقة يقلل حركة الإنتاج لدى الفرد والمجتمع.

٢ ـ والصوم فى حقيقة الأمر برىء من هذه التهمة، فالصوم يفترض فيه أنه يعمل على تصفية النفوس والتسامى بالأرواح. وهذا من شأنه أن يمد الفرد بطاقة روحية تجعله أقدر على الإنتاج والعمل أكثر مما لو لم يكن

صائمًا. وهذه الطاقة الروحية قوة لا يستهان بها، وقد حارب المسلمون فى غزوة بدر أيام الرسول وهم صائمون وانتصروا، وحارب الجنود المصريون عام ١٩٧٣م وهم صائمون حيث كان ذلك فى شهر رمضان وانتصروا. ولم يقلل الصوم من نشاطهم، بل كان العكس هو الصحيح تمامًا.

٣ - ما نراه فى بعض البلاد الإسلامية من قلة الإنتاج فى شهر الصوم يرجع إلى أسباب أخرى غير الصوم. فمن عادة الكثيرين أن يظلوا متيقظين فى شهر الصوم معظم الليل. ولا يأخذون قسطًا كافيًا من النوم، فنجدهم - نظرًا لذلك - متعبين أثناء النهار. ومن هنا يقل إنتاجهم، ويقبلون على أعمالهم ببطء وفى تثاقل. ويعتذرون عن ذلك بأنهم صائمون. وقد يكون اعتذارهم هذا فى أول النهار. فلو كان للصوم أى تأثير على النشاط - كما يزعمون - فإن ذلك لا يكون فى أول النهار، بل يكون فى فترة متأخرة منه.

٤ - لقد ثبت أن للصوم فوائد كثيرة صحية وروحية واجتماعية وتربوية. فالمفروض أنه فرصة سنوية للمراجعة والتأمل والتقييم والنقد الذاتى على المستويين الفردى والاجتماعى بهدف القضاء على السلبيات والتخلص من الكثير من الأمراض الاجتماعية، وهذا من شأنه أن يدفع حركة المجتمع بخطى أسرع، وبإخلاص أكثر، وبوعى أفضل.

ثانيًا: هل صحيح أن الزكاة تتيح للغنى فرصة عند الله أفضل من فرصة الفقير؟

١ - تعد الزكاة فى الإسلام أول ضريبة نظامية فى تاريخ الاقتصاد فى العالم. فالذى كان يحدث قبل ذلك هو أن الحكّام كانوا يفرضون الضرائب حسب أهوائهم، وبقدر حاجتهم إلى الأموال تحقيقًا لأغراضهم

الشخصية. وكان عبء هذه الضرائب يقع على كاهل الفقراء وحدهم. ولما جاء الإسلام وفرض الزكاة قام بتنظيم جمعها وحدد لها نسبة معينة، وجعلها تقع على عاتق الأغنياء والمتوسطين، وأعفى منها الفقراء(١). وتشريع الزكاة ليس فقط نظامًا ماليّا، وإنما هو فى الوقت نفسه عبادة كالصلاة والصيام والحج، يؤديها المسلم القادر على دفعها، ليس خوفًا من السلطة التنفيذية، ولكن تقربًا إلى الله واستجابة لتعاليم دينه.

٢ ـ شعر الفقراء فى زمن الرسول ﷺ بعجزهم عن أداء الزكاة مثل الأغنياء. ورأوا أن هذا من شأنه أن يعطى للأغنياء ميزة الحصول على الثواب من الله بأدائهم للزكاة وحرمان الفقراء من هذا الثواب مع أنه لا ذنب لهم فى فقرهم. وقام الفقراء بعرض ما يشعرون به على النبى ﷺ، فأوصاهم بالتسبيح والتحميد والتكبير (أى بقول سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر) ثلاثًا وثلاثين مرة عقب كل صلاة، وبيّن لهم أن هذا من شأنه أن يرفع من درجاتهم عند الله ويجعل منزلتهم عنده لا تقل عن منزلة الأغنياء الذين يؤدون الزكاة(٢).

٣ ـ المعيار الذى اعتمده القرآن فى المفاضلة بين الناس بصفة عامة هو معيار التقوى والعمل الصالح كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]. والتقوى مفهوم عام يشمل كل عمل يقوم به الإنسان ـ أيّا كان هذا العمل دينيّا أو دنيويّا ـ طالما قصد به وجه الله ونفع

---

(١) راجع: محمد قطب: شبهات حول الإسلام ـ ص٩١ ـ مكتبة وهبة ١٩٦٠م.
(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج٢ ص٣٢٥ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى المطبعة السلفية.

الناس ودفع الأذى عنهم. فالقرب من الله لا يتوقف على أداء الزكاة أو غيرها من الشعائر الإسلامية فحسب، بل يتوقف أيضًا على التوجه العام من جانب الإنسان فى كل ما يقوم به فى حياته من أعمال، وما يصدر عنه من سلوك وما يخرج من فمه من أقوال. والإسلام يعلق أهمية كبيرة على النية، فالأعمال بالنيات كما يقول النبى ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»(١). وهذا يعنى أن الفقير الذى لا يستطيع إخراج الزكاة ويتمنى أن لو كان لديه مال ليزكى به فإنه يثاب على هذه النية ما دامت صادقة. وقد يخرج الغنى الزكاة ويقصد من وراء ذلك التظاهر أمام الناس والحصول على مكانة بينهم فلا يثاب على ذلك بشىء.

ثالثًا: لماذا حرم الإسلام أكل لحم الخنزير؟

١ ـ لم يكن الإسلام أول الأديان التى حرمت أكل لحم الخنزير. فالديانة اليهودية تحرم أكل لحم الخنزير. ولا يوجد حتى الآن يهودى فى أوروبا وأمريكا يأكل لحم الخنزير إلا فيما ندر. ولم يعب أحد على اليهود ذلك، بل يحترم الغرب العادات الدينية لليهود. وعندما جاء السيد المسيح -عليه السلام- صرح ـ كما جاء فى الإنجيل ـ بأنه لم يأت لينقض الناموس بل ليكمله، أى أنه لم يأت ليغير التشريعات اليهودية. ومن بينها بطبيعة الحال تحريم أكل لحم الخنزير. والأمر المنطقى بناء على ذلك أن يكون الخنزير محرمًا فى المسيحية أيضًا(٢).

(١) البخارى: باب الوحى رقم١، والإيمان ٤١، والنكاح ٥، والطلاق ١١، والترمذى فضائل الجهاد ١٦، والنسائى طهارة ٥٩.

(٢) راجع: الحلال والحرام للدكتور القرضاوى ص٤٢ ـ قطر ١٩٧٨م.

٢ ـ عندما جاء الإسلام حرّم أيضًا أكل لحم الخنزير. وهذا التحريم امتداد لتحريمه فى الديانات السماوية السابقة. وقد نص القرآن الكريم عليه صراحة فى أربعة مواضع[١]. وهناك من ناحية أخرى ـ بجانب هذا التحريم الدينى ـ أسباب ومبررات أخرى تؤكد هذا التحريم. ومن ذلك ما أثبته العلماء المسلمون من أن أكل لحم الخنزير ضار بالصحة ولا سيما فى المناطق الحارة. وفضلاً عن ذلك فإن الآيات القرآنية التى ورد فيها تحريم لحم الخنزير قد جمعت هذا التحريم مع تحريم أكل الميتة والدم. وضرر أكل الميتة والدم محقق لما يتجمع فيهما من ميكروبات ومواد ضارة، مما يدل على أن الضرر ينسحب أيضًا على أكل لحم الخنزير.

وإذا كانت الوسائل الحديثة قد تغلبت على ما فى لحم الخنزير ودمه وأمعائه من ديدان شديدة الخطورة (الدودة الشريطية وبويضاتها المتكلسة) فمن الذى يضمن لنا بأنه ليست هناك آفات أخرى فى لحم الخنزير لم يكشف عنها بعد؟ فقد احتاج الإنسان قرونًا طويلة ليكشف لنا عن آفة واحدة. والله الذى خلق الإنسان أدرى به ويعلم ما يضره وما ينفعه. ويؤكد لنا القرآن هذه الحقيقة فى قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

٣ ـ يحسب الإسلام حساب الضرورات فيبيح فيها المحرمات. وفى ذلك قاعدة مشهورة تقول: الضرورات تبيح المحظورات. ومن هنا فإن المسلم إذا ألجأته الضرورة الملحة ـ التى يخشى منها على حياته ـ لتناول الأطعمة المحرمة ومنها الخنزير فلا حرج عليه. كما يشير إلى ذلك القرآن

---

(١) البقرة: ١٧٣، والمائدة: ٣، والأنعام: ١٤٥، والنحل: ١١٥.

الكريم : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٧٣]. . ولكن هذه الإباحة لا يجوز أن تتعدى حدود تلك الضرورة وإلا كان المسلم آثمًا .

رابعًا: لماذا حرم الإسلام الحرير والذهب على الرجال؟

١ ـ يعتمد القول بتحريم لبس الحرير والتختم بالذهب للرجال فى الإسلام على العديد من المرويات عن النبى ﷺ ـ كما ذهب إلى ذلك جمهور العلماء ـ وتتلخص وجهة نظرهم فى أن من طبيعة الرجل الصلابة والقوة. والإسلام يريد أن يتربى الرجال بعيداً عن مظاهر الضعف، وبعيداً عن مظاهر الترف الذى يحاربه الإسلام ويعده مظهراً من مظاهر الظلم الاجتماعى، وذلك حتى يكون الرجل قادراً على الكفاح والانتصار فى معارك الحياة وميادين القتال أيضًا إذا اقتضى الأمر. ولما كان التزين بالذهب وارتداء الحرير يعدان من مظاهر الترف فقد حرمهما الإسلام على الرجال. ولكنه أباحهما للمرأة مراعاة لمقتضى أنوثتها وما فطرت عليه من حب للزينة(١) .

٢ ـ وعلى الرغم من هذا التحريم فإنه إذا كانت هناك ضرورة صحية تقضى بلبس الرجل للحرير فإن الإسلام يبيح له ذلك ولا يمنعه. فقد أذن النبى ﷺ لكل من عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام فى لبس الحرير؛ لأنهما كانا يشكوان من حكة فى جسمهما(٢) .

---

(١) راجع : الحلال والحرام فى الإسلام للدكتور القرضاوى ص٨٠ وما بعدها ـ الدوحة ـ قطر ١٩٧٨م .

(٢) راجع : نيل الأوطار للشوكانى ج٢ ص٨١ ـ دار الجيل، بيروت ١٩٧٣م .

٣ ـ وقد ذهب الإمام الشوكانى (توفى حوالى عام ١٨٤٠م) فى كتابه الشهير «نيل الأوطار» إلى القول بأن أحاديث النبى ﷺ فى النهى عن لبس الحرير تدل على الكراهية فقط وليس على التحريم. والكراهية هنا درجة أخف من التحريم. ويقوى الشوكانى رأيه هذا بأن هناك ما لا يقل عن عشرين صحابيًّا منهم أنس والبراء بن عازب قد لبسوا الحرير. ومن غير المعقول أن يقدم هؤلاء الصحابة على ما هو محرم. كما يبعد أيضًا أن يسكت عنهم سائر الصحابة وهم يعلمون تحريمه(١).

٤ ـ أما التختم بالذهب أى اتخاذه كخاتم ونحوه للرجال فقد ذهب جمهور العلماء إلى تحريمه أيضًا اعتمادًا على بعض الأحاديث النبوية. ولكن هناك جماعة من العلماء ذهبوا إلى القول بكراهة التختم بالذهب للرجال كراهة تنزيه فقط. وكراهة التنزيه بعيدة عن التحريم وقريبة من الإباحة أو الجواز، واعتمدوا فى ذلك أيضًا على أن هناك عددًا من الصحابة قد تختموا بالذهب منهم سعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وصهيب، وحذيفة، وجابر بن سمرة، والبراء بن عازب. الذين فهموا أن النهى للتنزيه وليس للتحريم(٢).

---

(١) نيل الأوطار ج٢ ص٧٣ وما بعدها. راجع أيضًا: فقه السنة للشيخ سيد سابق ج٣ ص٤٨١ وما بعدها - بيروت ١٩٧١م.

(٢) راجع: فقه السنة: للشيخ سيد سابق ـ المجلد الثالث ص٤٨٢ وما بعدها، ٤٨٨ وما بعدها.

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثالث

الفتوحات الإسلامية وحقيقة الجهاد وقضية العنف

الفصل الرابع

الإسلام وقضايا الإنسان

الفصل الخامس

الإسلام وقضايا المرأة

الفصل السادس

قضايا حرية الاعتقاد ووحدة الأمة والتخلف

الفصل السابع

تساؤلات حول بعض تعاليم الإسلام